

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

المقدِّمة

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله، وعلى آله وصحبه ومن والاه.

وبعد:

يعلم الله أنَّه لم يؤثِّر في حياتي وينفعني في عبادتي مثلُ كتب الإمام ابن القيم عليه رحمة الله، فقد كانت لي بعد كتاب الله وسنَّة نبيِّه الزاد الذي أتزود منه لإيماني، والعلاج الناجع الذي أداوي به أعراض قلبي، وكلما أحسست بضعف في الإيمان، ورقة في الدين، وظلمة في القلب، يممت وجهي شطر كتبه أقرأها وأنتفع بها، فيذهب عني ما اعتراني من سوء.

وهذا الكتاب الذي بين يديك أيها القارئ، وإن كان صغير الحجم، فإنَّه عظيم الفائدة، وهو نافعٌ -بإذن الله- للكبير والصغير، لطالب العلم المبتدئ والمنتهي، ولا أبالغ إن قلت: إنَّ المضامين التي اشتمل عليها الكتابُ لا يستغني عنها العلماء فضلًا عن طلبة العلم وغيرهم من شباب الأمة وشابَّاتها ونسائها ورجالها وشيوخها، لما فيها من التذكير بالله، ومحاسبة النَّفس، وتصحيح العبادة، والدعوة إلى نبذ الفُرقة، ومحاربة الشِّرك، ونُصح العلماء، وتشخيص أمراض الدُّعاة القلبيَّة وتحذيرهم منها، فمن ذا الذي يستغني عن الوعظ والتذكير كبر مقامه أو صغر، وقد كان عليه

الصلاة والسلام يعِظُ الخُلفاء الراشدين وأكابر الصَّحابة ليل نهار!

وقد جمعتُ هذا الكتاب من كتابين لابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ هما: **إغاثة اللَّهفان في مصايد الشيطان، والآخر: طريقُ الهجرتين وباب السَّعادتين.**

وقد اجتهدت ألا أغيِّر من كلام الإمام ابن القيم رَحِمَهُ ٱللَّهُ إلا إذا كان الكلام طويلًا في بعض المواضيع، فأختصر بوصل أول الكلام مع ما يناسبه وحذف بعض الأسطر، لأخذ الفائدة دون أن أزيد على كلامه حرفًا واحدًا، وكذلك في العناوين قد أُبقي بعضَها على ما هي عليه، وقد أضع عنوانًا مناسبًا من عندي ليناسب ما في عصرنا من أمور.

والله يعلم أنَّه نازعتني نفسي عندما بدأت أجمع من كتب الإمامِ ما أثَّر في نفسي ورأيته مناسبا لزماني، أن أتوقَّف بذريعة شيطانية، وهي أن المؤلفات المؤخوذة من كتب ابن القيم تفوق الحصر، فلا داعي لحشو المكتبات بهذا الكتاب.

ولكن ما دعاني للاستمرار سببانِ شرح الله صدري بهما:

أولهما: أن صحيح الإمام البخاري -عليه رحمة ربي ورضوانه- قد تعاقب على شرحه العلماء من بعده، إلى أن شرحه الإمام ابن حجر في كتابه الموسوم بـ (فتح الباري) الذي قيل فيه: **«لا هِجرة بعد الفتْحِ»**، ومع ذلك ما فتئ أهلُ العلم يشرحونه إلى يومنا هذا، شرحه جمعٌ غَفيرٌ من العُلماء السَّابقين، وتوالت شروحه من

المشايخ المعاصرين وكثرت، ولا زال أهل العلم يتناولُونه بالتأليف، تتكرَّرُ كتابتُهم في موضوع واحد يتناولُ الكتاب، أو يكتبون في مواضيع مختلفة تتعلق به، ووحده الله يعلم أين يكون النفع وأين تُوضَعُ البركة.

ثانيهما: أرى – وقد أكون مخطئا لقلة الاطلاع وقصر الباع– أن معظم الكتب المجموعة من كلام الإمام ابن القيِّم رَحِمَهُ ٱللَّهُ فيها نوع من الطول، وفي عصرنا هذا يصعب على بعض الشباب المبتدئ القراءة والجلد لذلك، فأردت أن أُقرِّب لهم شيئا من كلام هذا العالم الجِهبذ الذي سمعت به الدنيا وأبصرت له، لما حباه الله من علم غوائر الذنوب ومآلاتها وآثارها على الفرد والمجتمع، وقد أسميتُ هذا الكتاب «مراقي الأولياء»؛ لأني أرجو لقارئه والعامل بما فيه أن يحوز أعلى المراقي من درجات الأولياء.

والله أسأل أن يجعل هذا العمل حجابًا لي من النار، وأن ينفع به المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها، إن ربي على كل شيء قدير.

فهد بن محمد آل طراد القحطاني

٢٥/ ١٠/ ١٤٣٩ هـ



المرقاة الأولى

أهمية القلب وقطع الوساوس

لما علم عدوُّ الله إبليس أنَّ المدار على القلب والاعتماد عليه، أجلب عليه بالوساوس، وأقبل بوجوه الشَّهوات إليه، وزيَّن له من الأحوال والأعمال ما يصدُّه به عن الطَّريق، وأمَدَّه من أسباب الغَيِّ بما يقطعه عن أسباب التوفيق، ونصب له من المصايِد والحبائل ما إن سلم من الوقوع فيها، لم يسلمْ من أن يحصل له بها التعويق..

فلا نجاةَ من مصايِده ومكايِده إلا بدوام الاستعانة بالله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ، والتعرض لأسباب مرضاته، والتجاء القلب إليه وإقباله عليه في حركاته وسكناته، والتحقق بذلِّ العبودية الذي هم أولى ما تلبَّس به الانسان ليحصل له الدخول في ضمان ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ﴾ [الحجر: ٤٢].

فهذه الإضافة هي القاطعة بين العبد وبين الشَّياطين، وحصولها سبب تحقيق مقام العبوديَّة لرب العالمين، وإشعار القلب بإخلاص العلم ودوام اليقين، فإذا أُشربَ القلبُ العبودية والإخلاص صار عند الله من المقربين، وشمله استثناء ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [الحجر ٤٠][(١)].

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/ ٣٧)، طبعة ابن الجوزي.

أنواع القلوب:

القلوب على ثلاثة أنواع:

أولا: القلب السليم:

هو القلبُ الذي سلم من أن يكون لغير الله فيه شرك بوجهٍ ما، بل قد خلصت عبوديَّتُه لله تعالى، إرادةً ومحبة وتوكُّلًا وإنابة وإخباتًا وخشيةً ورجاءً وخلُص عملُه لله..

فإن أحبَّ أحب في الله، وإن أبغض أبغض في الله، وإن أعطى أعطى لله، وإن منع منع لله..

ولا يكفيه هذا حتَّى يسلم من الانقياد والتحكيم لكل من عدا رسوله ﷺ، فيعقد قلبه معه عقدًا محكمًا على الائتمام والاقتداء به وحده دون كل أحد في الأقوال والأعمال من أقوال القلب وهي العقائد، وأقوال اللسان وهي الخبر عما في القلب، وأعمال القلب وهي الإرادة والمحبة والكراهية وتوابعها، وأعمال الجوارح[1]، فيكون الحاكم عليه في ذلك كلِّه دِقِّه وجلِّه هو ما جاء به الرسُولُ ﷺ، فلا يتقدَّم بين يديه بعقيدةٍ ولا قول ولا عمل، كما قال تعالى:

(١) وهذا معتقد أهل السنة والجماعة، وهو الحق في مسألة الإيمان، على خلاف المرجئة وبعض الطوائف الضالة.

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ بَيۡنَ يَدَيِ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ [الحجرات: ١]، أي لا تقولوا حتَّى يقول، ولا تفعلوا حتى يأمر.

قال بعض السَّلف: ما من فِعلةٍ وإن صغُرتْ إلا وينشر لها ديوانان: لِـمَ؟ وكيف؟ أي: لم فعلت ؟ وكيف فعلت[١].

ثانيا: القلب الميت:

هو القلب الذي لا حياة به، فهو لا يعرف ربه، ولا يعبده بأمره وما يحبه ويرضاه، بل هو واقف مع شهواته وإرادته، ولو كان فيها سخط ربه وغضبه، فهو لا يبالي – إذا فاز بشهوته وحظِّه- رضي ربه أم سخط، فهو متعبِّد لغير الله حبـًا وخوفـًا ورجـاءً ورضـًا وسخطـًا وتعظيمًا وذُلًا..

إن أحبَّ أحبَّ لهواه، وإن أبغَض أبغَض لهواه، وإن أعطى أعطى لهواه، وإن منع منع لهواه، فهواه آثَر عنده وأحبُّ إليه من رضا مولاه، فالهوى إمامه، والشهوة قائده، والجهلُ سائسه، والغفلة مَرْكبُه..

فهو بالفكر في تحصيل أغراضِه الدنيوية مغمورٌ، وبسكرة الهوى، وحُبِّ العاجلة مخمور، يُنادَى إلى الله وإلى الدار الآخرة من مكان بعيد، فلا يستجيب

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/ ٤٠).

للناصح ويتَّبع كل شيطان مَريد..

الدنيا تسخطه وترضيه، والهوى يصمُّه عما سوى الباطل ويعميه، فهو في الدنيا كما قيل في ليلى:

عدوٌّ لمن عادت وسِلْمٌ لأهلها　　　ومن قرَّبت ليلى أحبُّ وأقربا

فمخالطة صاحب هذا القلب سُقْمٌ، ومعاشرتُه سُمٌّ، ومجالستُه هلاك[1].

ثالثا: القلب المريض:

قلبٌ له حياةٌ وبه عِلَّة، فله مادتان، تمده هذه مرة وهذه أخرى، وهو لما غلب عليه منهما، ففيه من محبة الله تعالى والإيمان به، والإخلاص له، والتوكل عليه ما هو مادة حياته.

وفيه من محبَّة الشَّهوات وإيثارها والحرص على تحصيلها والحسد والكبر والعُجب وحب العلو والفساد في الأرض بالرياسة ماهو مادة هلاكه وعطبه.

فهو ممتحن بين داعِيين:

داع يدعوه إلى الله ورسوله والدار الآخرة.

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/ ٤٤).

وداع يدعوه إلى العاجلة، وهو إنما يجيب أقربهما منه بابًا، وأدناهما إليه جوارًا.

فالقلب السليم: حيٌّ مخبِتٌ ليِّن واعٍ.

والقلب الميت: يابس ميِّت.

والقلب المريض: فإما إلى السَّلامة أدنى، وإما إلى العطب أدنى.

وقد جمع الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ بين هذه القلوب الثلاثة في قوله:

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ۝٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ۝٥٤ ﴾ [الحج: ٥٢،٥٣،٥٤].

***

المرقاةُ الثَّانية

القُلوب والفِتن

قال حذيفة بن اليمان رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ: قال رســول الله ﷺ: **«تعرض الفتن على القلوب كعرض الحصير عودًا عودًا، فأيُّ قلب أُشربها، نكتت فيه نكتةٌ سوداء، وأي قلب أَنكرها، نكتت فيه نكتةٌ بيضــاء، حتَّى تعود القلوب على قلبين: قلب أســود مربادًا كالكُوز مجخِّيًا، لا يعرِفُ معروفًا ولا يُنكر منكرًا، إلا ما أُشرب من هواه، وقلب أبيض مثل الصَّفا، لا تضرُّه فتنةٌ ما دامت السَّموات والأرض»**(١).

فشبه عرض الفِتن على القُلوب شيئًا فشيئًا كعرض عِيدان الحصير -وهي طاقاتها- شيئًا فشيئًا، وقسم القُلوب عند عرضها عليها قِسمين:

قلبٌ إذا عرضت عليه فتنة أُشربها كما يشرب السفنج الماء فتنكت فيه نكتة سوداء، فلايزال يُشرب كل فتنة تُعرضُ عليه، حتَّى يسود وينتكِسَ، وهو معنى قوله (كالكُوزِ مجَخِّيًا). أي مكبُوبًا منكوسًا، فإذا اسودَّ وانْتكَس عرَض له من هاتين الآفتين مرضان خطيران مترامیان به إلى الهَلاك.

أحدهما: اشتباه المعروف عليه بالمنكر، فلا يعرف معروفًا ولا ينكر منكرًا، وربما استحكم فيه هذا المرض، حتَّى يعتقد المعروف منكرًا والمنكر معروفًا،

(١) أخرجه مسلم (١٤٤).

والسنَّة بدعةً والبدعة سنَّة، والحقَّ باطلًا والباطل حقًا.

الثاني: تحكيمه هواه على ما جاء به الرسـول ﷺ، وانقياده لهواه، واتباعه له.

وقلبٌ أبيضُ، قد أشرق فيه نورُ الإيمان، وأزهر فيه مصباحه، فإذا عرضت عليه الفتنة أنكرها وردها، فازداد نورُه وإشراقُه وقوته.

والفتن التي تعرض على القلوب هي أسباب مرضها، وهي فتن الشهوات وفتن الشبهات، فتن الغيِّ والضلال، فتن المعاصي والبدع، فتن الظلم والجهل؛

فالأولى: توجب فساد القصد والإرادة.

والثانية: توجب فساد العلم والاعتقاد [١][٢].

***

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (ص: ٤٧-٤٨).

(٢) وقد رأينا هذا -والله- واقعًا معروفًا، فقد طُمِسَتْ بعض القلوب بما ران عليها فرأتْ في هذا الزَّمان الغِناء والسُّفور، وخُروج المرأة للعمل المختلِط، والسَّفر خارج البلاد للسياحة دون محرم، حتى إنَّ بعض من ينتسب للدعوة والعلم -للأسف- يُسافر لدول الكفر للفُسحة، فإذا أنكرت عليهم وصموك بالتخلف والرجعيَّة. نسأل الله السلامة والعافية، والله المستعان.

المِرقاةُ الثَّالثَة

دعاء الجمع بين خَيريْ الدُّنيا والآخِرة

عن عمَّار بن ياسِر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قال: كان رسولُ الله يدعوا بـــ: **«اللهُمَّ بعلمِك الغَيب وقُدرتك على الخلق أحيِني ما علمتَ الحياة خيرًا لي، وتوفني إذا كانت الوفاة خيرًا لي، وأسألُك خَشْيتَك في الغيب والشهادة، وأسألك كلمة الحق في الغضب والرِّضا، وأسألك القصد في الفقْر والغِنى، وأسألُك نعيمًا لا ينفد، وأسألك قُرَّةَ عينٍ لا تنقطِع، وأسألك الرِّضا بعد القضاء، وأسالك بَرْدَ العيش بعد الموت، وأسألك لَذَّة النَّظر إلى وجهك، وأسألُك الشَّوق إلى لقائِك، في غير ضَرَّاء مُضِرَّة، ولا فِتنة مُضِلَّة، اللهم زَيِّنَّا بزِينة الإِيمان، واجعلنا هُداةً مهتدين»**[1].

فجمع في هذا الدُّعاء عَظيم القدر بين أطيب شيء في الدنيا وهو الشوق إلى لقائه سبحانه، وأطيب شي في الآخرة وهو النظر إلى وجهه سبحانه، ولما كان كمال ذلك وتمامه موقوفًا على عدم ما يضر في الدنيا ويفتن في الدين قال: **«في غير ضراء مضرة، ولا فتنة مضلة»**.

ولما كان كمال العبد في أن يكون عالمًا بالحق، متَّبعًا له، معلمًا لغيره، مرشدًا

(١) رواه النسائي والإمام أحمد وابن حبان وانظر صحيح الظلال (١٢٩)، وللحافظ ابن حجر رسالة مفردة في شرح هذا الحديث.

له؛ قال: «**واجعلْنا هُداة مهتَدين**».

ولما كان الرضا النافع المحصِّلُ للمقصود هو الرضا بعد وقوع القضاء لا قبله، فإنَّ ذلك عزمٌ على الرِّضا، فإذا وقع القضاء انفسخ ذلك العزم.

سأل الرِّضا بعده، فإن المقدور يكتِنفُه أمران: الاستِخارة قبل وقوعه، والرِّضا بعد وقوعه.

فمن سعادة العبد أن يجمعَ بينهُما، كما في المُسند وغيره عنه ﷺ قال: «**إن من سعادة ابن آدم: استخارة الله، ورضاه بما قضى، وإن من شقاوة ابن آدم: ترك استخارة الله، وسخطه بما قضى الله تعالى**»[1].

ولما كانتْ خشيةُ الله عزَّ وجل رأسَ كل خيرٍ في المشهد والمغيب: سألهُ خشيته في الغيب والشهادة.

ولما كان أكثرُ الناس إنَّما يتكلم بالحقِّ في رضاه، فإذا غضب أخرجهُ غضبه عن الحق إلى الباطل، وقد يُدخله أيضًا رضاه في الباطل.

سأل الله عز وجل أَنْ يُوفِّقه لكلمة الحق في الغَضب والرِّضا، ولهذا قال بعض السَّلف: «لا تكن ممَّن إذا رضي أدْخَله رضاه في الباطل، وإذا غضب أخرجَهُ

(١) ضعيف، انظُر الضَّعيفة (١٩٠٦).

غضبُه من الحقِّ».

ولما كان الفقر والغنى محنتين وبلِيَّـــتَين يبتلي الله بهما عبده، ففي الغِنى يبسط يده، وفي الفقر يقبضهما، سأل الله عز وجل القصد في الحالين، وهو التوسُّط الذي ليس معه إسراف ولا تقتير.

ولما كان النَّعيمُ نوعين، نوعًا للبدنِ ونوعًا للقلب، وهو قُرَّة العين، وكمالُه بدوامِه واستمراره جمع بينهما في قوله: **«أسألُكَ نعيمًا لا ينفَدُ، وقُرَّةَ عينٍ لا تنقطعُ»**.

ولما كانت الزِّينة زينتين:

زينة البدن، وزينة القلب، وكانت زينة القلب أعظمهما قدرًا، وأجلُّهما خطرًا، وإذا حصلت حصلت زينة البدن على أكمل الوجوه في العُقبى، سأل ربه الزينة الباطنة فقال: **«زيِّنَّا بزينةِ الايمان»**.

ولما كان العيش في هذا الدار لا يبرد لأحدٍ كائنًا من كان، بل هو محشـــوٌّ بالغصص والنَّكد ومحفوفٌ بالآلام الظاهرة والباطنة، سأل برد العيش بعد الموت.

والمقصـــود أنَّه ﷺ جمع في هذا الدعاء المبارك بين أطيب ما في الدنيا، وأطيب ما في الآخرة.

وإن حاجة العباد إلى ربهم في عبادتهم إياه وتألههم له، كحاجتهم إليه في

خلقه لهم، ورزقه إياهم، ومعافاة أبدانهم، وستر عوراتهم، وأمن رَوْعاتهم، بل حاجتهم إلى تألهه ومحبَّته وعبوديَّته أعظم، فإنَّ ذلك هو الغاية والمقصود لهم، ولا صلاح لهم، ولا نعيم ولا فلاح، ولا لذة ولا سعادة بدون ذلك بحال، ولهذا كانت **«لا اله الا الله»** أحسن الحسنات[١]، وكان توحيد الإلهية رأس الامر[٢].

❋❋❋

(١) كما في حديث أبي ذر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ أنَّه قال: يا رسول الله! أَمِن الحسنات «لا اله الا الله»؟ قال: «هي أفضل الحسنات». رواه أحمد بإسناد حسن كما في الصحيحة (١٣٧٣) للعلامة للألباني.

(٢) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/٧٣).

المرقاة الرابعة

أفضلُ نعيم الآخرة على الإطلاق

إن أفضل نعيم الآخرة على الإطلاق هو النظر إلى وجه الرب جَلَّجَلَالُهُ وسماع خطابه كما في صحيح مسلم عن صهيب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ، عن النبي ﷺ: **«اذا دخل أهل الجنة الجنة، نادى مناد: يا أهل الجنة! إن لكم عند الله موعدًا يريد أن يُنجزكمُوه فيقولون: ما هو؟ ألم يُبيِّض وجوهنا ويثقِّل موازيننا و يدخلنا الجنة؟ ويُجرنا من النار؟ قال: فيكشف الحجاب فينظرون إليه فما أعطاهم شيئًا أحب إليهم من النَّظر إليه»**[1].

وفي حديث آخر: **«فلا يلتفتُون إلى شيء من النَّعيم، ما دامُوا ينظرون إليه»**[2].

فبيَّن النبي عَلَيْهِٱلصَّلَاةُوَٱلسَّلَامُ أنهم مع كمال نعيمهم بما أعطاهم ربهم في الجنة لم يعطهم شيئًا أحبَّ إليهم من النظر اليه، وإنما كان ذلك أحبَّ إليهم؛ لأنَّ ما يحصل لهم به من اللَّذَّة والنَّعيم والتمتُّع أكبرُ ممَّا يحصل من ذلك بالأكل والشُّرب والحور العين، بل لا نسبة بين اللذتين والنعيمين البتة.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه (٢٥٥٢)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٥٢١).

(٢) أخرجه ابن ماجه في سننه (١٨٤)، وضعفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير (٢٣٦٣).

وكما أنه لا نسبة لنعيم ما في الجنة إلى نعيم النَّظر إلى وجهه الأعلى سبحانه، كذلك لا نسبة لنعيم الدنيا إلى نعيم محبته ومعرفته والشوق إليه والأنس به، بل لذة النظر إليه سبحانه تابعة لمعرفتهم به ومحبتهم له، فإن اللذة تتبع الشُّعور والمحبة، وكلما كان المحب أعرف بالمحبوب وأشد محبة له، كان التذاذه بقربه ورؤيته ووصوله إليه أعظم(١).



(١) إغاثة اللهفان (١/ ٧٩-٨٠-٨١).



المرقاة الخامسة

المؤمن بين همِّ الدُّنيا وهمِّ الآخِرة

إن حُبَّ الدنيا هَمٌّ لازم، لكن من الناس من يغلِبُ همُّ آخرتِه همَّ دنياه، ومنهم من تكون الدنيا كلَّ همّه أو أكبر همِّه، قال النبي ﷺ في الحديث الذي أخرجه الترمذي وغيره من حديث أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: **«من كانت الآخرةُ همَّه جعل الله غناه في قلبه، وجمع له شملَه، وأتتْه الدُّنيا وهي راغمة، ومن كانت الدُّنيا همَّه، جعل الله فقره بين عَيْنيه، وفرَّق عليه شملَهُ ولم يأتِه من الدنيا إلَّا ما قُدِّر له»**[1].

ومن أبلغ العذاب في الدنيا تشتيتُ الشَّمل وتفرُّق القلب، وكون الفقر نصب عيني العبد لا يفارقه، ولولا سكرة عُشَّاق الدنيا بحبها لا ستغاثوا من هذا العذاب، على أنَّ أكثرهم لا يزال يشكو ويصرخ منه.

وفي الترمذي أيضًا عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن النبي ﷺ قال: **«يقول الله تبارك وتعالى: ابنَ آدم! تفرَّغ لعبادتي، أملأْ صدرك غنًى، وأسُدَّ فقرك، إن لا تفعل ملأتُ يديك شُغلًا ولم أسدَّ فقرك»**[2].

وهذا أيضا من أنواع العذاب، وهو اشتغال القلب والبدن بتحمل أنكاد

(١) (٢٤٦٥)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٩٤٩).

(٢) (٢٤٦٦)، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٣٥٩).

الدنيا ومحاربة أهلها إياه ومقاساة معاداتهم، كما قال بعض السلف: «من أحب الدنيا فليوطن نفسه على تحمل المصائب».

وحب الدنيا لا ينفكُّ من ثلاث: هم لازم، وتعب دائم، وحسرة لا تنقضي، وذلك أنَّ محبها لا ينال منها شي إلا طمحت نفسه إلى ما فوقه، كما في الحديث الصحيح **«لو كان لابن آدم واديان من مالٍ لا بتغى ثالثًا»**[1]، وقد مثل عيسى ابن مريم عليه السلام محبَّ الدنيا بشارب الخمر، كلما ازداد شربًا ازداد عطشًا[2].

❊ ❊ ❊

---

(١) أخرج البخاري (٦٤٣٦) ومسلم (١٠٤٨).

(٢) إغاثة اللهفان (١/٨٦-٨٧).

المرقاة السادسة

كتاب الحسن البصري لعمر بن عبدالعزيز

ذكر ابن أبي الدنيا أن الحسن البصري كتب إلى عمر بن عبد العزيز: «أما بعد.. فإن الدنيا دار ظعن ليست دار إقامة، إنما أنزل اليها آدم عَلَيْهِٱلسَّلَامُ عقوبة فاحذرها يا أمير المؤمنين.

إنَّ الزاد منها تركها، والغنى فيها فقرها، لها في كل حين قتيل، تُذِلُّ من أعزَّها، وتُفقِرُ من جمعها، هي كالسُّمِّ يأكله من لا يعرفُه وهو حتفُه، فكن فيها كالمداوي جِراحَه يحتمي قليلًا مخافة ما يكره طويلًا، ويصبر على شِدَّة الدواء مخافة طول البلاء.

فاحذر هذه الدار الغرَّارة الخدَّاعة الخَتَّالة التي قد تزيَّنت بخُدَعها وفتنَت بغُرورها، وخيَّلت بآمالها، وتشوَّقت لخُطَّابها، فأصبحت كالعروس المجلوَّة، فالعيون فيها ناظرة والقلوب عليها والهة، والنفوس لها عاشقة، وهي لأزوُجها كلِّهم قاتلة.

فعاشقٌ لها قد ظفر منها بحاجة فاغترَّ وطغى، ونسي المعاد فشغل بها لُبُّه، حتَّى زالت عنها قدماه فعظُمتْ عليها ندامتُه، وكثُرتْ حسرتُه، واجتمعت عليه سكرات الموت وألُمه وحسرات الفَوت.

وعاشق لم ينل منها بُغيته، فعاش بغُصَّته، وذهب بكمده، ولم يدرك منها ما

طلب، ولم تسترح نفسه من التعب، فخرج بغير زاد وقدم على غير مهاد.

فكن أسر ما تكون فيها، أحذر ما تكون لها، فإن صاحب الدنيا كلما اطمأنَّ منها إلى سُرور أشخصتْه إلى مكروه، وُصِل الرخاء منها بالبلاء، وجُعِل البقاء فيها إلى فناء، سرورها مشوب بالحزن، وأمانيها كاذبة، وآمالها باطلة، وصفوها كدَر وعيشها نكَد.

فلو كان ربُّها لم يخبر عنها خبرا، ولم يضرب لها مثلًا لكانت قد أيقظت النائم، ونبَّهت الغافل، فكيف وقد جاء من الله فيها واعظ، وعنها زاجر، فما لها عند الله قدر ولا وزن، وما نظر إليها منذ خلقها، ولقد عُرضت على نبينا بمفاتيحها وخزائنها، لا ينقصها عند الله جناح بعوضة، فأبى أنْ يقبلَها، وكره أن يحب ما أبغض خالقه أو يرفع ما وضع مليكُه[1]. فزواها عن الصالحين اختيارًا، وبسطها لأعدائه اغترارًا، فيظن المغرور بها المقتدر عليها أنه أُكرِمَ بها، ونسي ما صنع الله عز وجل برسوله حين شدَّ الحجَر على بطنه[2].

❊ ❊ ❊

(١) إشارة إلى حديث: **«وإني أعطيتُ مفاتيح خزائن الأرض»** أخرجه البخاري (١٣٤٤)، ومسلم (٢٢٩٦). وينظر: فتح الباري (٤/٢٠٨)، و (١١/٢٨٤).

(٢) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/ ٨٨).



المرقاة السابعة

اتقاء المؤمن نجاسة الفواحش والمعاصي

إن نجاسة الفواحش والمعاصي في القلب بمنزلة الأخلاط الرديئة في البدن وبمنزلة الدغل[1] في الزرع، وبمنزلة الخبث في الذهب والفضة والنحاس والحديد، فكما أنَّ البدن اذا استفرغ من الأخلاط الرديئة تخلصت القوة الطبيعية منها فاستراحت، فعملت عملها بلا معوِّق ولا ممانع فنما البدن، فكذلك القلب إذا تخلص من الذنوب بالتوبة، فقد استفرغ من تخليطه، فتخلَّصت قوة القلب وإرادته للخير فاستراح من تلك الجواذب الفاسدة والمواد الرديئة: زكا ونما وقوي واشتدَّ وجلس على سرير مُلكِه، ونفَذ حكمه في رعيَّته، فسمعت له وأطاعت، فلا سبيل له إلى زكاته إلا بعد طهارته كما قال تعالى: ﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَى لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [النور: ٣٠] فجعل الزكاة بعد غض البصر وحفظ الفرج.

ولهذا كان غض البصر عن المحارم يوجب ثلاث فوائد عظيمة الخطر، جليلة القدر:

إحداها: حلاوة الإيمان ولذَّته التي هي أحلى وأطيب وألذ ممَّا صرف

(١) يعني الفساد.



بصره عنه، وتركه لله تعالى، فإنَّ من ترك لله شيئًا عوضه الله عز وجل خيرًا منه، والنفس مولعة بحبِّ النَّظر إلى الصُّور الجميلة، والعين رائد القلب فيبعث رائده لينظر ما هناك، فإذا أخبره بحسن المنظور إليه وجماله تحرك اشتياقًا إليه، وكثيرًا ما يَتعبُ، ويُتْعِبُ رسولَه ورائدَه كما قيل:

وكنتَ متى أرسلتَ طرْفَك رائدًا ... لقلبِك يومًا أتعبتْك المناظرُ
رأيت الذي لا كلُّه أنتَ قادرٌ ... عليه ولا عن بعضه أنتَ صابر

فإذا كفَّ الرَّائد عن الكشف والمطالعة، استراح القلب من كُلفة الطَّلب والإرادة، فمن أطلقَ لحظاتِه دامتْ حسراتُه فإنَّ النَّظر يولد المحبة، فيصير علاقة يتعلَّقُ القلبُ بالمنظُور إليه، ثُمَّ تقوى فتصير صبابةً يَنصبُّ إليه القلب بكليَّته، ثم تقوى فتصير غَرامًا يلزَم القلبَ كلُزوم الغريم الذي لا يُفارق غَريمه، ثم يقوى فيصير عِشْقًا وهو الحبُّ المفرط، ثُمَّ يقوى فيصيرُ شَغفًا، وهو الحبُّ الذي و صل شِغاف القلب وداخِله، ثم يقوى فيصير تتيُّمًا، والتتيُّم التعبد، ومنه تيَّمه الحُبُّ اذا عبده، وتيَّمَ الله عبدَ الله، فيصير القلبُ عبدًا لمن لا يصلُح أن يكونَ عبدًا له، وهذا كلُّه جنايةُ النَّظر، فحينئذ يقع القلبُ في الأسر فيصير أسيرًا بعد أنْ كان ملكًا، ومسجونًا بعد أنْ كان طليقًا، يتظلَّم من الطَّرْف ويشكُوه، والطرفُ يقول: أنا رائدُك ورسولُك، وأنت بعثتني.

وهذا إنما تُبتلى به القلوب الفارغة من حب الله والإخلاص له، فإنَّ القلب لا بُدَّ له من التعلُّق بمحبوبٍ، فمن لم يكن الله وحده محبوبَه وإلهُهُ ومعبُوده، فلا بد أن يتعبَّد قلبُه لغيره. قال تعالى عن يوسف الصديق عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ: ﴿ كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٤]، فامرأة العزيز لما كانت مشركةً وقعتْ فيما وقعت فيه مع كونها ذاتَ زوجٍ، ويوسف عَلَيْهِ ٱلسَّلَامُ لما كان مخلصًا لله تعالى نجا من ذلك مع كونه شابًّا عزبًا غريبًا مملُوكًا.

ثانيها: في غضِّ البصر- نورُ القلب وصِحَّة الفراسة، قال أبو شُجاع الكرماني: «من عمّر ظاهرَه باتباع السنة، وباطنَه بدوام المراقبة، وكفَّ نفسه عن الشَّهوات، وغضَّ بصره عن المحارم، واعتاد أكل الحلال لم تخطي له فراسة»، وقد ذكر سبحانه قصة قوم لوط وما ابتلوا به ثُمَّ قال بعد ذلك: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَأٓيَٰتٖ لِّلۡمُتَوَسِّمِينَ ٧٥ ﴾ [الحجر: ٧٥]، وهم المتفرسون الذين سلِموا من النَّظر المحرَّم والفاحشة، وقال تعالى عقيب أمره للمؤمنين بغضِّ أبصارهم وحفظ فروجهم ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ [النور ٣٥].

وسر هذا أنَّ الجزاء من جنس العمل، فمن غضَّ بصره عما حرَّم الله عليه، عوَّضه الله تعالى من جنسه ما هو خير منه، فكما أمسك نور بصره عن المحرَّمات،

أطلَق الله بصيرته وقلبَه، فرأى به ما لم يره من أطلق بصره ولم يغضَّه عن محارم الله تعالى، وهذا أمرٌ يُحِسُّه الانسان من نفسه، فإن القلب كالمرآة، والهوى كالصَّدأ فيها، فإذا خلصت من الصَّدأ انطبعت فيها صور الحقائق كما هي عليه. واذا صدئت لم تنطبع فيها صورُ المعلومات، فيكون علمُه وكلامُه من باب الخرص والظُّنون.

ثالثها: قوة القلب وثباته وشجاعته، فيعطيه الله تعالى بقوته سلطان النُّصرة كما أعطاه بنوره سلطان الحُجَّة، فيجمعُ الله له بين السُّلطانين، ويهرُب الشَّيطان منه كما في الأثر: «إن الذي يخالف هواه يفرَقُ الشــيطان من ظِلِّه»[1]، ولهذا يوجد في المتبع هواه من ذُلِّ النَّفس وضعفها ومهانتِها ما جعله الله لمن عصاه، فإنَّه سبحانه جعل العز لمن أطاعه، والذُّلَّ لمن عصاه قال تعالى: ﴿ وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [المنافقون: ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَهِنُواْ وَلَا تَحْزَنُواْ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران ١٣٩]، وقال تعالى: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعِزَّةَ فَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر١٠] أي من كان يطلب العزة فليطلبها بطاعة الله، بالكلم الطيِّب والعمل الصَّالح[2].

(١) حلية الأولياء (٢/٣٦٥).

(٢) إغاثة اللهفان (١/١٠٣-١٠٦).

النجاسة المحسُوسة والمعنوية:

النجاسة تارة تكون ظاهرة، وتارة تكون معنوية باطنة، فيغلب على الروح والقلب الخبث والنجاسة، حتَّى إنَّ صاحب القلب الحيِّ ليَشُمُّ من تلك الرُّوح والقلبِ حتَّى يجد لرائحة عرقِه نتنًا، فإنَّ نتن القلبِ والرُّوح يتَّصل بباطن البدن أكثر من ظاهره، والعرَق يفيض من الباطن، ولهذا كان الرجل الصَّالح طيِّبَ العرَق، وكان الرَّسُول ﷺ أطيب النَّاس عرقًا، قالت أمُّ سليم وقد سألها رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عنه وهي تلتقطُه – أي العرق-: هو أطيبُ الطِّيب(١).

فالنفسُ النَّجسة الخبيثة، يزيدُ خبثُها ونجاستُها حتَّى يبدو على الجسد، والنَّفس الطيِّبة بضدِّها، فإذا تجرَّدت وخرجتْ من البدن وجد لهذه كأطيب نَفحةٍ مِسْك وجدت على وجه الأرض، ولتلك كأنتن ريح جِيفة وُجدت على وجه الأرض(٢).

❊ ❊ ❊

(١) أخرجه مسلم (٢٣٣١) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) إغاثة اللهفان (١/١٢٦).



المرقاة الثامنة

معرفةُ الله

لو عرف العبد كل شيء ولم يعرف ربه فكأنه لم يعرف شيئًا، ولو نال كلَّ حظٍّ من حظُوظ الدنيا ولذَّاتها وشـهواتها، ولم يظفرْ بمحبَّة الله والشَّـوق إليه والأُنس به فكأنه لم يظفر بلذَّة ولا نعيم ولا قُرَّة عين، بل إذا كان القلب خاليًا من ذلك عادت تلك الحظُوظ واللَّذَّاتُ عذابًا له ولا بدّ، فيصير معذَّبًا بنفس ما كان منعَّـــمًا به من جهتين:

من جهة حسرةِ فوتِه وأنَّه حِيل بينه وبينَه مع شِدَّة تعلُّقِ رُوحه بِه ومن جهة فوتِ ما هو خيرٌ له وأنفع وأدوم حيثُ لم يحصــل له، فالمحبوبُ الحاصــل فات، والمحبوبُ الأعظم لم يظفرْ به.

وكُلّ من عرف الله أحبَّه وأخلصَ العِبادة له ولابدَّ، ولم يُؤثِّر عليه شــيئًا من المحبوبات، فقلبُه مريضٌ كما أنَّ المعدة إذا اعتادتْ أكلَ الخبيثِ وآثرته على الطِّيب سقطت عنها شهوةُ الطيِّب وتعوضت بمحبة غيرة!!.

وقد يمرَض القلبُ ويشــتدُّ مرضُــه، ولا يعرِف به صــاحبُه، لاشــتغاله وانصرـافه عن معرفة صـحته وأسـبابها، بل قد يموتُ وصـاحبُه لا يشـعُر بموته، وعلامة ذلك أنَّه لا تُؤلمه جراحاتُ القبائح، ولا يُوجعه جهله بالحق وعقائده



الباطلة، فإنَّ القلب إذا كان فيه حياةٌ تألَّم بورود القَبيح عليه، وتألَّم بجهله بالحق بحسب حياته.

وما لجُرحٍ بميِّت إيـْلامُ

وقد يشعر بها فيه ولكن يشتدُّ عليه تحمُّل مَرارة الدَّواء والصبر عليها فيُؤْثِر بقاء ألمه على مشقَّة الدواء، فإنَّ دواءه في مخالفة الهوى، وذلك أصعب شيء على النَّفس، وليس لها أنفع منه.

وتارةً يوطِّن نفسه على الصَّبر ثُمَّ ينفسخ عزمُه، ولا يستمرُّ معه لضَعف علمِه وبصيرتِه وصبرِه كمن دخل في طريق مخوِّف مُفضٍ إلى غاية الأمن وهو يعلم أنَّه صبر عليه، انقضى الخوف، وأعقبه الأمنُ، فهو محتاج إلى قوَّةِ صبر وقوَّةِ يقين بما يصيرُ إليه.

ومتى ضعُف صبرُه ويقينُه رجع من الطَّريق، ولم يتحمَّل مشقَّتها، ولا سيَّما إنَّ عدِم الرَّفيقَ واستوحَشَ الطَّريق من الوحدة، وجعل يقول: أين ذهب الناس؟! فلي بهم أسوة!!.

وهذه حال أكثرُ الخلق، وهي التي أهلكتْهم فالبصيرُ الصَّادق لا يستوحشُ من قِلَّة الرَّفيق، ولا من فقده اذا استشعر قلبُه الرَّعيلَ الأوَّل ﴿ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ

عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

فتفرُّد العبدِ في طريق طلبِه دليلٌ على صدق الطَّلب[1].

***

(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٣٩).

المرقاة التاسعة

علامات صحَّةِ القَلب

من علامات صـــحته أن يرتحل عن الدنيا حتَّى ينزل بالآخرة ويحلَّ فيها حتَّى يبقى كأنَّه من أهلها وأبنائها، جاء إلى هذه الدار غريبًا، يأخذ منها حاجته ويعود إلى وطنه كما قال النبي عَلَيْهِ ٱلصَّلَاةُ وَٱلسَّلَامُ لعبد الله بن عمر رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُمَا: **«كن في الدنيا كأنَّك غريب أو عابر سبيل وعُد نفسك من أهل القبور»**[(١)].

فحيّ على جنَّات عدن فإنها	منازلك الأولى وفيها المخيَّم
ولكننا سبيُ العدوِّ فهل ترى	نعود إلى أوطاننا ونُسلّم

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ «إنَّ الدنيا قد ترحَّلت مُدبِرةً، وإنَّ الآخرة قد ترحَّلت مقبلة، ولكل منهما بنُون، فكونوا من أبناء الآخرة ولا تكونوا من أبناء الدُّنيا، فإنَّ اليوم عملٌ ولا حسابٌ، وغدًا حساب ولا عمل»[(٢)].

وكلما صح القلب من مرضه ترحَّل إلى الآخرة، وقرب منها حتى يصير من أهلها، وكلما مرض القلب واعتلَّ آثر الدنيا واستوطنها حتَّى يصير من أهلها.

---

(١) أخرجه البخاري (٦٤١٦).

(٢) يُنظر: الزهد والرقائق لابن المبارك (٢٥٥).

ومن علامات صحة القلب: أنَّه لا يزال يضرب على صاحبه حتَّى يُنيب إلى الله ويُخبت إليه ويتعلق به تعلق المحبِّ المضطرِّ إلى محبوبه الذي لا حياة له ولا فلاح ولا نعيم ولا سرور الا برضاه وقربه والأُنس به.

فبه يطمئن وإليه يسكُن، وإليه يأوي، وبه يفرح وعليه يتوكل، وبه يثِق وإيَّاه يرجو، وله يخاف، فذكره قوته وغذاؤه ومحبته، والشوق إليه حياته ونعيمه ولذَّته وسروره، والالتفات إلى غيره والتعلق بسواه داؤه، والرجوع إليه دواؤه،

فإذا حصل له ربه سكن إليه واطمأنَّ به، وزال ذلك الاضطراب والقلق وانسدَّت تلك الفاقة.

فإنَّ في القلب فاقةً لا يسده شي سوى الله تعالى أبدًا، وفيه شعث لا يلمه غير الإقبال عليه،وفيه مرضٌ لا يشفيه غيرُ الإخلاص له وعبادتُه وحده، فهو دائمًا يضربُ على صاحبه حتَّى يسكن ويطمئنَّ إلى إلهه ومعبوده.

فحينئذ يباشر روحَ الحياة ويذوقُ طعمَها، ويصير له حياة أخرى غير حياة الغافلين المعرضين عن هذا الأمر الذي له خُلِق الخلق، ولأجله خلقت الجنة والنار وله أُرسلت الرسل، وأُنزلت الكتب، ولو لم يكن له جزاء إلا نفس وجوده، لكفى به جزاءً وكفى بفوته حسرةً وعقوبةً، كما قيل:



ومن صـــد عنا حظه البعد والقِلى ومـن فـاتـنَـا يـكـفـيـه أني أفـوتُـه

قال بعض العارفين: «مســاكين أهل الدُّنيا، خرجوا من الدنيا وما ذاقوا أطيب ما فيها، قيل: وما أطيب ما فيها؟ قال: محبة الله والأنس به، والشــوق إلى لقائه، والتنعّم بذكره وطاعته».

ومن علامات صحة القلب:

أن لا يفتر عن ذكر ربه، ولا يسـأمَ من خدمته ولا يأنس بغيره، إلا بمن يدلُّه عليه ويذكر به ويذاكره بهذا الأمر.

ومن علامات صـــحته: أنه اذا فاته وِرْده وجد لفواته ألَمًا أعظم من تألُّــــم الحريص بفوات ماله وفقده.

ومن علامات صــحته: أنَّه يشـتاق إلى الخدمة، كما يشـتاق الجائع إلى الطعام والشراب.

ومن علامات صــحته: أنه اذا دخل في الصــلاة ذهب عنه همُّه وغمه بالدنيا، واشتد عليه خروجه منها، ووجد فيه راحته ونعيمه، وقرت عينه وسرور قلبه.

ومن علامات صحته: أن يكون أشح بوقته أن يذهب ضائعًا من أشد الناس شُحًا بماله.

ومن علامات صحته: أن يكون همُّه واحدًا، وأن يكون في الله.

ومنها: أن يكون اهتمامه بتصـــحيح العمل أعظم منه بالعمل فيحرص على الإخلاص فيه، والنصيحة والمتابعة والإحسان، ويشهد مع ذلك منة الله عليه فيه، وتقصيره في حق الله.

فهذه ستة مشاهد لا يشهدُها إلا القلب الحيُّ السَّليم [١].

***

(١) يُنظر: إغاثة اللَّهفان (١/١٤٣-١٤٨).

المرقاة العاشرة

منع النفس من الاستيلاء على القلب

قد اتفق السالكون إلى الله -على اختلاف طُرُقهم وتباين سلُوكهم- على أن النفس قاطعة بين القلب وبين الوصول إلى الرب، وأنه لا يدخل عليه سبحانه ولا يوصل إلا بعد تركها وإماتتها بمخالفتها، والظفر بها.

فإن الناس على قسمين:

قسم ظفرت به نفسه فملكته وأهلكته وصار طوعًا لها وتحت أوامرها.

وقسم ظفروا بنفوسهم فقهرُوها فصارت طوعًا لهم ومنقادةً لأوامرهم.

قال بعضُ العارفين: انتهى سفر الطالبين إلى الظفر بأنفسهم فمن ظفر بنفسه أفلح وأنجح، ومن ظفرت به نفسه خسر وهلك، قال تعالى:

﴿ فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾ وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾ فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾﴾ [النازعات: ٣٧-٤١].

فالنَّفس تدعو إلى الطغيان وإيثار الحياة الدنيا، والرب تعالى يدعو العبد إلى خوفه ونهي النَّفس عن الهوى، والقلب بين الداعيين يميل إلى هذا الداعي مرة وإلى هذا مرة، وهذا موضع المحنة والابتلاء.

وقد وصــف الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ النَّفس في القرآن بثلاث صــفات: المطمئنة، والأمّارة بالسُّوء، واللوَّامة[1].

❊ ❊ ❊

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/١٥١-١٥٢).

المرقاة الحادية عشرة

المؤمن والجوارح السبع

هذه الجوارح السبع، وهي: العين والأذن، والفم، واللسان، والفرج، واليد، والرجل، هي مراكب العطب والنجاة، فمنها عطب من عطب بإهما لها وعدم حفظها، ونجا من نجا بحفظها ومراعاتها، فحفظها أساس كل خير، وإهمالها أساسُ كل شرٍّ.

قال تعالى: ﴿قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [النور: ٣٦]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾﴾ [الاسراء ٣٧]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَـٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾﴾ [الإسراء: ٣٦]، وقال: ﴿وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَـٰنَ كَانَ لِلْإِنسَـٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾﴾ [الإسراء ٥٣]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَقُولُوا۟ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠]، وقال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَلْتَنظُرْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ لِغَدٍ﴾ [الحشر: ١٨].

فإذا شارطها على حفظ هذه الجوارح، انتقل منها إلى مطالعتها والإشراف

عليها ومراقبتها فلا يهملها، فإنه إن أهملها لحظة رتعت في الخيانة ولابد، فإن تمادى في الإهمال تمادت في الخيانة، حتى يذهب رأس المال كله، فمتى أحسَّ بالنقصان انتقل إلى المحاسبة، فحينئذ يبين له حقيقة الرِّبح والخُسران، وتيقنه استدرك منها ما يستدركه الشريك من شريكه: من الرّجوع عليه بما مضى والقيام بالحفظ والمراقبة في المستقبل، ولا مطمع له في فسخ عقد الشركة مع هذا الخائن والاستبدال بغيره، فإنه لابد له منه، فليجتهد في مراقبتِه ومحاسبتِه وليحذَر من إهماله [1].



(١) إغاثة اللهفان (١/ ١٦١).

المرقاة الثانية عشرة

وقفات مع النَّفس قبل العَمل لله

محاسبة النفس نوعان: نوع قبل العمل، ونوع بعده.

فأما النوع الأول: فهو أن يقف عند أول همّه وإرادته، ولا يبادِرَ بالعَمل حتَّى يتبيَّن له رُجْحانه على تركِه.

قال الحسن رحمه الله: «رحم الله عبدًا وقف عند همِّه، فإن كان لله مضى، وإن كان لغيره تأخر».

وشرح بعضُــهم فقال: إذا تحركت النفس لعمل من الاعمال وهمَّ به وقف أوَّلًا ونظر هل ذلك العمل مقدورٌ له، أم غير مقدور ولا مســتطاع؟ فإن لم يكن مقدورًا لم يُقدِم عليه، ووقف وقفة أخرى ونظر، هل فعله خير له من تركه، أو تركه خير له من فعله؟

فإن كان الثاني تركه ولم يقدم عليه وإن كان الأول وقف وقفة ثالثةً ونظر، هل الباعثُ إليه إرادة وجه الله عز وجل وثوابه، أم إرادة الجاه والثناء والمال من المخلوق؟

فإن كان الثاني، لم يُقدم –وان أفضى به إلى مطلوبه– لئلا تعتاد النفس الشرك، ويخف عليها العمل لغير الله، فبقدر ما يخفُّ عليها ذلك، يثقل عليها العمل لله

تعالى حتى يصــير أثقل شيء عليها، وإن كان الأول، وقف وقفة أخرى ونظر، هل هو مُعان عليه وله أعوان يسـاعدونه وينصر ـونه إذا كان العمل محتاجا إلى ذلك أم لا؟ فإن لم يكن له أعوان أمسك عنه، كما أمسك النبي ﷺ عن الجهاد بمكة حتى صار له شوكة وأنصار، وإن وجد معانًا عليه، فليُقدم عليه فإنَّه منصور، ولا يفوت النجاح إلا من فوات خصــلة من هذه الخصـــال، وإلا فمع اجتماعاتها لا يفوته النَّجاح.

فهذه أربع مقامات يحتاج إلى محاسبة نفسه عليها قبل الفعل، فما كلُّ ما يريد العبد فعله يكون مقدورًا له، ولا كل ما يكون مقدورًا له يكون فعله خيرًا من تركه، ولا كل ما يكون فعله خيرًا له من تركه يفعله لله، ولا كل ما يفعله لله يكون معانًا عليه، فإذا حاسب نفسه على ذلك تبين له ما يقدم عليه وما يحجم عنه[1][2].

❁ ❁ ❁

(١) لو التزم أهلُ العلم والدعوة هذه الوصفة من هذا العلم الفذ، فو الله لا تكاد تخطئ لهم رمية، ولا يسقط لهم مشروع، إلا أن يشاء الله رب العالمين.

(٢) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/ ١٦٢-١٦٣).



المرقاة الثالثة عشرة

تجنُّب المؤمن من مكائد الشيطان وجنده

من كيد عدو الله تعالى أن يخوف المؤمنين من جنده وأوليائه، فلا يجاهدونهم ولا يأمرونهم بالمعروف، ولا ينهونهم عن المنكر وهذا من أعظم كيده بأهل الايمان وقد أخبرنا الله تعالى سبحانه عنه بهذا وقال: ﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

والمعنى عند جميع المفسرين: «يخوفكم بأوليائه».

قال قتادة: «يعظمهم في صدوركم».

ولهذا قال: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]، فكلما قوي إيمان العبد، زال من قلبه خوف أولياء الشيطان، وكلما ضعف إيمانه، قوي خوفه منهم.

ومن مكايده أنه يسحر العقل دائمًا حتى يكيده، ولا يسلم من سحره إلا من شاء الله فيزين له الفعل الذي يضره حتى يخيل إليه أنه من أنفع الأشياء له، ويقبح له الفعل الذي ينفعه حتى يخيل له أنه يضره.

فلا إله إلا الله كم فُتن بهذا السحر من إنسان ! وكم حال به بين القلب وبين الإسلام والإيمان والإحسان، وكم جلا الباطل وأبرزه في صورة مستحسنة

وبُشِّع الحق، وأخرجه في صورة مستهجنة! وكم بُهرِج من الزُّيوف على الناقدين، وكم رُوِّج من الزّغل على العارفين!

فهو الذي سـحر العقول حتى ألقى أربابها في الأهواء المختلفة، والآراء المتشعبة، وسلك بهم في سبل الظلال كل مسلك وألقاهم من المهالك في مهلك بعد مهلك، وزين لهم عبادة الأصـنام، وقطيعة الرحم، ووأد البنات، ونكاح الأمهات، ووعدهم الفوز بالجنان مع الكفر والفسوق والعصيان.

وهو الذي أبرز لهم الشرك في صورة التعظيم، والكفر بصفات الرب تعالى وعلّوه على عرشـه وتكلمه بكتبه في قالب التنزيه، وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في قلب التودد إلى الناس، وحسن الخلق معه، والعمل بقوله: ﴿ عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ﴾ [المائدة: ١٠٥]، والإعراض عما جاء به الرسول عليه الصلاة والسلام في قالب التقليد والإكتفاء بقول من هو أعلم منهم، والنفاق والادّهان في دين الله في قالب العقل المعيشيّ الذي يندرِج به العبد بين الناس.

فهو صـاحب الأبوين حين أخرجهما من الجنة، وصـاحب قابيل حين قتل أخاه، وصـاحب قوم نوح حين أُغرقوا، وقوم عاد حين أُهلكوا بالريح العقيم، وصاحب قوم صالح حين أُهلكوا بالصيحة، وصاحب الأمة اللوطية حين خُسف بهم أُتبعوا بالرجم والحجارة، وصاحب فرعون وقومه حين أُخذوا الأخذة الرابية، وصـاحب عُباد العجل حين جرى عليهم ما جرى، وصـاحب قريش حين دعوا

يوم بدر، وصاحب كل هالك ومفتون[1].

كيد الشيطان في القوة والإحجام!!

ومن كيده العجيب أنه يُشـام[2] النفس حتى يعلم أي القوتين تغلب عليها: «قوة الشجاعة والإقدام» أم «قوة الانكفاف والإحجام والمهانة»؟

فإن رأى الغالب على النفس المهانة والإحجام أخذ في تثبيطه وأضـعاف همته، وإرادته عن المأمور به وثقَّله عليه، وهوّن عليه تركَه حتى يتركه جملةً، أو يقصر فيه ويتهاون به.

وإن رأى الغالب عليه قوة الإقدام وعلُوَّ الهمة أخذ يقلل عنده المأمور به ويوهمه أنَّه لا يكفيه، وأنَّه يحتاج معه مبالغة وزيادة.

فيقصِّر بالأول ويتجاوز بالثاني، كما قال بعض السلف: «ما أمر الله سبحانه بأمر إلا وللشيطان فيه نزغتان: إما إلى تفريط وتقصير، وإما إلى مجاوزة وغلو، ولا يبالي بأيهما ظفر».

وقد اقتُطع أكثر الناس إلا أقل القليل في هذين الواديين: وادي التقصـير، ووادي المجاوزة والتعدي، والقليل منهم جدًا الثابت على الصراط الذي كان عليه

---

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/٢١١-٢١٢).

(٢) يختبرها ليرى ما عندها.

رسول الله ﷺ وأصحابه.

فقوم قصَّر بهم عن الإتيان بواجبات الطهارة، وقوم تجاوز بهم إلى مجاوزة الحد بالوسواس.

وقوم قصّر بهم عن إخراج الواجب من المال، وقوم تجاوز بهم حتَّى أخرجوا جميع ما في أيديهم، وقعدوا كَلًّا على الناس مستشرفين إلى ما بأيديهم.

وقوم قصّر عن تناول ما يحتاجون إليه من الطعام والشراب واللباس حتى أضرُّوا بأبدانهم وقلوبهم، وقوم تجاوز بهم حتى أخذوا فوق الحاجة فأضرُّوا بقلوبهم وأبدانهم.

وكذلك قصّر بقوم في حق الأنبياء وورثتهم حتَّى قتلوهم، وتجاوز بآخرين حتَّى عبدوهم.

وقصّر بقوم خُلطة الناس حتى اعتزلوهم في الطاعات كالجمعة والجماعات والجهاد وتعلم العلم، وتجاوز بقوم حتى خالطوهم في الظلم والمعاصي والآثام.

وقصّر بقوم حتى امتنعوا عن ذبح عصفور أو شاة ليأكله، وتجاوز بآخرين حتى جرأهم على الدماء المعصومة.

وكذلك قصّر بقوم حتَّى منعهم من الا شتغال بالعلم الذي ينفعهم، وتجاوز

بأخرين حتَّى جعلوا العلم وحده هو غايتهم دون العمل به[1].

وقصّر بقوم حتى أطعمهم من العُشب ونبات البرية دون غذاء بني آدم، وتجاوز بآخرين حتَّى أطعمهم الحرام الخالص.

وقصّر بقوم حتى زين لهم ترك سنة رسول الله ﷺ من النكاح فرغبوا عنه بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى ارتكبوا ما وصلوا إليه من الحرام.

وقصّر بقوم حتى جفوا الشيوخ من أهل الدين والصلاح، وأعرضوا عنهم ولم يقوموا بحقهم، وتجاوز بآخرين حتى عبدوهم مع الله تعالى.

وكذلك قصّر بقوم حتى منعهم قبول أقوال أهل العلم والالتفات إليها بالكلية، وتجاوز بآخرين حتى جعلوا الحلال ما حللّوه والحرام ما حرّموه، وقدموا أقوالهم على سنة رسول الله ﷺ الصحيحة الصريحة[2].

كيد الشيطان للإنسان بحسن الخلق وطلاقة الوجه:

ومن أنواع مكايده ومكره أن يدعو العبد – بحسن خلقه وطلاقته وبشره –

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/٢٢٢-٢٢٤).

(٢) ومن المحزن ما تراه من بعض طلبة العلم في هذا الزمان بعد انتشار العلم وزخم المؤلفات، فترى بعضهم ليس له همٌّ الا مناقشة المسائل ومتابعة الشيوخ وحضور الدروس، وهذا حسن ولكن اذا نادى مناد الحق للصلاة أتى يجر خطاه بعد الإقامة أو قبيل انتهاء الصلاة، فلا فريضة أدّى على وجهها، ولا سنة أدرك، ولا عمل بعلمه. والله المستعان ولا حول لا قوة إلا بالله.

إلى أنواع من الآثام والفجور، فيلقاه من لا يخلِّصُه من شرِّه إلا تجهُّمه والتعبِيس في وجهه والإعراض عنه، فيُحسّن له العدوُّ أن يلقاه ببشـــره وطلاقة وجهِه وحُسن كلامه؛ فيتعلَّق به، فيروم التخلُّصَ منه فيعجز، فلا يزال العدو يســعى بينهما حتى يصيب حاجته، فيدخل على العبد بكيده، وباب حسن الخلق وطلاقة الوجه.

ومن هنا وصى أطبَّاء القلوب بالإعراض عن أهل البدع وأن لا يســلم عليهم ولا يريهم طلاقة وجهه، ولا يلقاهم إلا بالعبوس والإعراض.

وكذلك أوصــوا عند لقاء من يخاف الفِتنة بلقائه من النِّســاء والمردان، وقالوا: متى كشفتَ للمرأة أو الصبيِّ بياض أسنانك، كشفا لك عما هنالك، ومتى لقيتهما بوجهٍ عابس وُقِيت شرَّهما.

ومن مكايده: أنه يأمرك أن تلقى المســاكين وذوي الحاجات بوجه عبُوس، ولا تريهم بشرًا ولا طلاقة؛ فيطمعوا فيك ويتجرؤوا عليك وتسقط هيبتك في قلوبهم؛ فيحرمك صــالح أدعيتهم، وميل قلوبهم إليك ومحبتهم لك، فيأمرك بســوء الخلق ومنع البشر والطلاقة مع هؤلاء وبحسن الخلق والبشر مع أولئك ليفتح لك باب الشر، ويُغلق عنك باب الخير(١).

الانقطاع في المسجد:

ومن كيد الشيطان وخداعه أنه يأمر الرجل بإنقطاعه في مسجد، أو رباط أو

---

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٣١-٢٣٢).

زاوية أو تربة، ويحبســـه هناك وينهاه عن الخروج ويقول له: متَى خرجتَ تبذَّلت للناس، وســـقطتَّ من أعينِهم، وذهبت هيبتُك من قلوبهم، وربما ترى في طريقك منكرًا.

وللعدو في ذلك مقاصـــد خفية يريدها منه، منها الكبر واحتقار الناس، وحفظ الناموس، وقيام الرياســـة، ومخالطة الناس تذهب ذلك، وهو يريد أن يُزار ولا يزور، ويقصـــده الناس ولا يقصـــدهم، ويفرح بمجيء الأمراء إليه، واجتماع الناس عنده، وتقبيل يده، فيترك من الواجبات والمستحبَّات والقُربات ما يقرِّبه إلى الله، ويتعوَّض عنه بما يُقرِّب النَّاس إليه.

وكان رسول الله ﷺ يخرج إلى السُّوق، قال بعض الحُفاظ: **«وكان يشتري حاجته ويحملها بنفسـه»**، وذكره أبو الفرج الجوزي وغيره، وكان أبو بكر الصـدِّيق رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يخرج إلى السُّوق ويحمل الثياب فيَبيع ويشتري.

ومرَّ عبدالله بن ســـلام رَضِيَٱللَّهُعَنهُ وعلى رأســـه حُزمة حطَب، فقيل له: ما يحمِلُك على هذا وقد أغناك الله عز وجل؟ فقال: أردت أن أدفع به الكبر، فإني سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: **«لا يدخل الجنة عبد في قلبه مثقال ذرة من الكبر»**. أخرجه مسلم.

وكان أبو هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنهُ يحمل الحطب وغيره من حوائجِه بنفسه وهو أمير على المدينة ويقول: **«افسحوا لأميركم، افسحوا لأميركم»**، وخرج عمر بن الخطاب

رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يومًا وهو خليفة في حاجة له ما شيًا فأعيا، فرأى غلامًا على حمار له فقال: يا غلام! احملني فقد أعييتُ، فنزل الغُلام عن الدابة وقال: اركبْ يا أمير المؤمنين، فقال: لا، اركبْ أنت وأنا خلفك، فركب الغلام حتى دخل المدينة والنَّاس يرونه[1].

مــزاميــر الشيـطـان:

ومن مكايد عدو الله ومصـايده التي كاد بها من قلّ نصـيبه من العلم والعقل والدين، وصاد بها قلوب الجاهلين المبطلين:

سـماع المكاء والتصـدية والغناء بالآلات المحرمة الذي يصـدُّ القلوب عن القرآن، ويجعلها عاكفة على الفسـوق والعصـيان فهو قرآن الشـيطان، والحجاب الكثيف عن الرحمن، وهو رقية اللواط والزِّنى، وبه ينال العاشـق الفاسـق من معشوقه غاية المُنى، كاد به الشيطان النفوس المبطلة، وحسنه لها مكرًا منه وغرورًا، وأوحى إليها الشـبه الباطلة على حُسـنه، فقبلت وحيه، واتخذت لأجله القرآن مهجورًا.

فلو رأيتهم عند ذيّاك السماع، وقد خشعت منهم الأصوات، وهدأت منهم الحركات وعكفت قلوبهم بكليتها عليه، وانصبّت انصبابة واحدة إليه، فتمايلوا له ولا كتمايل النشـوان، وتكسـروا في حركاتهم ورقصـهم أرأيت تكسُّرـ المخانيث

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/ ٢٣٥).

والنِّســوان! ويحق لهم ذلك وقد خالط خُماره النفُوس، ففعل فيها أعظم ما تفعله حميُّ الكؤوس.

فلغير الله –بل للشيطان – قلوب هناك تُمزّق، وأثواب تشـقَّقُ، وأموال في غير طاعة الله تُنفق، حتى إذا عمل السُـكر فيهم عمله، بلغ الشـيطان منهم أُمنيَته وأمله، واستفزَّهم بصـوته وحيله، وأجلب عليهم بخيله ورجله، وخز في صـدورهم وخزًا، وأزَّهم إلى ضرب الأرض بالأقدام أزًّا، فطوْرًا يجعلهم كالحمير حول المدار، وتارة كالدباب ترقُص وسط الديار.

فيا رحمة للسُّـقوف والأرض من دكِّ تلك الأقدام، ويا سـوأتا من أشـباه الحمير والأنعام، ويا شماتة أعداء الإسلام بالذين يزعمون أنهم خواصّ الإسلام، قضوا حياتهم لذة وطربًا واتخذوا دينهم لهوًا ولعبًا.

مزامير الشـيطان أحب إليهم من اسـتماع سُـورِ القرآن، لو سـمع أحدهم القرآن من أوَّله إلى آخرِه لما حرَّك فيه ساكنًا، ولا أزعج له قاطنًا، ولا أثَّر فيه وجدًا، ولا قدح فيه من لواعج الشـوق إلى النار زندًا، حتى إذا تُلي عليهم قرآن الشـيطان وولج مزمُوره سـمعه، تفجرت ينابيع الوجد من قلبه على عينيه فجرتْ، وعلى أقدامه فرقَصت، وعلى يديه فصفقت، وعلى سائر أعضائه فاهتزَّت وطربت، وعلى أنفاسه فتصاعدت، وعلى زفراته فتزايدت، وعلى نيران قلبه فاشتعلت.

فيا أيها المفتون والبائع حظَّه من الله بنصـيبه من الشـيطان صـفقةَ خاسر

ومغبون! هلا كانت هذه الأشــجان: عند سـماع القرآن! وهذه الأذواق والمواجيد عند قراءة القرآن المجيد! وهذه الأحوال السّـنيّات: عند تلاوة السـور والآيات؟

ولقد صدق القائل:

تلي الكتاب فأطرقوا لا خيفة ... لكنه إطراق ساه لاهي

وأتى الغناء فكالحمير تناهقوا ... والله ما رقصوا لأجل الله[1].

❊ ❊ ❊

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (١/٤٠٨-٤٠٩).

المرقاة الرابعة عشرة

اتقاء فتنة الشهوات والشبهات

الفتنة نوعان:

فتنة الشبهات وهي أعظم الفتنتين.

وفتنة الشهوات وقد يجتمعان للعبد وقد ينفرد بإحداهما.

ففتنة الشبهات: من ضعف البصيرة وقلة العلم ولا سيما إذا اقترن بذلك فساد القصد وحصول الهوى فهناك الفتنة العظمى والمصيبة الكبرى، فقل ما شئت في ضلال سيئ القصد والحاكم عليه الهوى لا الهدى، مع ضعف بصيرته وقلة علمه بما بعث الله به رسوله، فهو من الذين قال الله تعالى فيهم: ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهۡوَى ٱلۡأَنفُسُ﴾ [النجم: ٢٣].

وقد أخبر الله سبحانه أن اتباع الهوى يُضل عن سبيل الله فقال: ﴿ يَٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلۡنَٰكَ خَلِيفَةٗ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱحۡكُم بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلۡهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ لَهُمۡ عَذَابٞ شَدِيدُۢ بِمَا نَسُواْ يَوۡمَ ٱلۡحِسَابِ ﴾ [ص: ٢٦].

وهذه الفتنة مآلها إلى الكفر والنفاق، وهي فتنة المنافقين وفتنة أهل البدع على حسب مراتب بدعهم، فجميعهم إنما ابتدعوا من فتنة الشبهات التي اشتبه

عليهم فيها الحق بالباطل، والهدى بالضلال.

ولا يُنجِّي من هذه الفتنة إلا تجريد اتِّباع الرسـول، وتحكيمه في دِقِّ الدين وجِلّه، ظاهره وباطنه، عقائده وأعماله، حقائقه وشرائعه، فيتلّقى عنه حقائق الإيمان، وشرائع الإسلام، وما يُثبته لله من الصفات والأفعال والأسماء، وما ينفيه عنه.

وأما النوع الثاني من الفتنة:

ففتنة الشهوات، وقد جمع سبحانه بين ذكر الفتنتين في قوله تعالى: ﴿ كَٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ كَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنكُمۡ قُوَّةٗ وَأَكۡثَرَ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا فَٱسۡتَمۡتَعُواْ بِخَلَٰقِهِمۡ فَٱسۡتَمۡتَعۡتُم بِخَلَٰقِكُمۡ كَمَا ٱسۡتَمۡتَعَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُم بِخَلَٰقِهِمۡ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْۚ أُوْلَٰٓئِكَ حَبِطَتۡ أَعۡمَٰلُهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾[التوبة: ٦٩]، أي تمتعوا بنصيبهم من الدنيا وشهواتها، والخلاق: هو النصيب المقّدر ثم قال: ﴿ وَخُضۡتُمۡ كَٱلَّذِي خَاضُوٓاْ ﴾ [التوبة: ٦٩]، فهذا الخوض بالباطل وهو الشبهات.

فأشـار سـبحانه في هذه الآية إلى ما يحصـل به فسـاد القلوب والأديان من الاسـتمتاع بالخلاق، والخوض بالباطل؛ لأن فسـاد الدين إما أن يكون باعتقاد الباطل والتكلم به، أو بالعمل بخلاف العلم الصحيح.

فالأول: هو البدع وما والاها.

والثاني: فسق الأعمال

فالأول: فساد من جهة الشبهات.

والثاني: من جهة الشهوات.

ولهذا كان السلف يقولون: احذروا فتنة العالم الفاجر، والعابد الجاهل؛ فإن فتنتهما فتنة لكل مفتون، وأصل كل فتنة إنما هو من تقديم الرأي على الشرع، والهوى على العقل.

فالأوَّل أصل فتنة الشبهة. والثاني: أصل فتنة الشهوة.

ففتنة الشبهات تُدفع باليقين، وفتنة الشهوات تُدفع بالصبر، ولذلك جعل سبحانه إمامة الدين منوطة بهذين الأمرين فقال: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا ۖ وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٥]، فدل على أنه بالصبر واليقين تُنال الإمامة في الدين.

وجمع بينهما أيضًا في قوله: ﴿ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٣]، فتواصوا بالحق الذي يدفع الشبهات، وبالصبر الذي يكف عن الشهوات وجمع بينهما في قوله: ﴿ وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ ﴾ [ص: ٤٥]، فالأيدي: القوى والعزائم في ذات الله، والأبصار: البصائر في أمر الله

وعبارات السَّلف تدور على ذلك.

قال ابن عباس: أولي القوة في طاعة الله والمعرفة بالله.

وقال الكلبي: أولي القوة في العبادة والبصر فيها.

وقال مجاهد: الأيدي القوة في طاعة الله والأبصار البصر في الحق.

وقال سعيد بن جبير: الأيدي القوة في العمل والأبصار بصرهم بما هم فيه من دينهم.

وقد جاء في حديث مرسل: **«إن الله يحب البصر النافذ عند ورود الشبهات، ويحب العقل الكامل عند حُلول الشهوات»**، فبكمال العقل والصبر تدفع فتنة الشهوة وبكمال البصيرة واليقين تدفع فتنة الشبهة. والله المستعان[١].

فتنة العشق الذي يقترن بالفواحش:

ومما ينبغي أن يُعلم: أنه قد يقترن بالأيسر إثمًا ما يجعله أعظم إثمًا ممَّا هو فوقه.

مثاله: أنه قد يقترن بالفاحشة من العشق الذي يوجب اشتغال القلب بالمعشوق، وتألهُّه له وتعظيمه، والخضوع له، والذل له، وتقديم طاعته وما يأمر به على طاعة الله تعالى ورسوله وأمره، فيقترن بمحبة خِدْنه وتعظيمه، وموالاة من يواليه، ومعاداة من يعاديه، ومحبة ما يحبه، وكراهة ما يكرهه، ما قد يكون أعظم

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (٢/٨٨٩-٨٩١).

ضررًا على صاحبه من مجرَّد ركوب الفاحشة.

فإنَّ المحبوبات لغير الله قد أثبتَ الشارعُ فيها اسم التعبُّد، كقوله - صلى الله عليه وسلم - في الصحيح: «تَعِسَ عبد الدينار، تعس عبد الدراهم، تعس عبد القطيفة، تعس عبد الخميصة، تعس وانتكَسَ، وإذا شِيكَ فلا انتَقَشَ، إن أُعطيَ رضيَ، وإن مُنِع سخط»[1].

فسمّى هؤلاء الذين إن أعطوا رضوا وإن مُنعوا سخطوا عبيدًا لهذه الأشياء، لانتهاء محبتهم ورضاهم ورغبتهم إليها.

فإذا شُغف الإنسان بمحبة صورة لغير الله، بحيث يرضيه وُصولُهُ إليها وظَفَرُه بها، ويُسخِطه فَوَات ذلك، كان فيه من التعبُّد لها بقدر ذلك.

ولهذا يجعلون الحب مراتب: أوله العلاقة، ثم الصبّابة، ثم الغرام، ثم العشق، وآخر ذلك: التَّتيُّم، وهو التعبُّد للمعشوق، فيصير العاشق عبدًا لمعشوقه، والله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ إنما حكى عشق الصور في القرآن عن المشركين، فحكاه عن إمرأة العزيز وكانت مشركة على دين زوجها وكانوا مشركين، وحكاه عن اللوطّية وكانزا مشركين فقال تعالى في قصتهم ﴿ لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِى سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴾ [الحجر: ٧٢].

---

(١) رواه البخاري برقم (٢٨٨٦، ٢٨٨٧) عن أبي هريرة رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

وأخبر سبحانه أنه يصرفه عن أهل الإخلاص -أي العشق المحرم- فقال: ﴿كَذَٰلِكَ لِنَصۡرِفَ عَنۡهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلۡفَحۡشَآءَۚ إِنَّهُۥ مِنۡ عِبَادِنَا ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [يوسف: ٢٥]، وقال عن عدوِّه إبليس، أنه قال: ﴿ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغۡوِيَنَّهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٨٢ إِلَّا عِبَادَكَ مِنۡهُمُ ٱلۡمُخۡلَصِينَ ﴾ [ص: ٨٢-٨٣]، وقال تعالى: ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٌ إِلَّا مَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴾ [الحجر: ٤٢]، والغاوي ضد الراشد، والعشق المحرم من أعظم الغيّ.

ولهذا كان أتباع الشعراء وأهل السماع غاوين كما سمَّاهم الله تعالى بذلك في قوله: ﴿ وَٱلشُّعَرَآءُ يَتَّبِعُهُمُ ٱلۡغَاوُۥنَ ﴾ [الشعراء: ٢٢٤]، فالغاوون يتبعون الشعراء وأصحاب السماع الشعري الشيطاني، وهؤلاء لا ينفكون عن طلب وصال أو سؤال نوال[١].

ثم قال في موضع آخر[٢]:

ومعلوم أنَّ شارب الخمر لا يدوم سُكره بها، بل لا بد أن يُفيق ولعل أوقات إفاقته أكثر من أوقات سُكره، وأما سكرة العشق فقلّ أن يستفيق صاحبها إلا إذا جاءت الرسل تطلبه للقدوم على الله تعالى.

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (٨٦٨).

(٢) يُنظر: إغاثة اللهفان (٨٧٣).

ولهذا استمرت سكرة اللوطية حتَّى فجأهم عذاب الله وعقوبته وهم في سكرتهم يعمهون، فكيف إذا خرج العشق إلى حدِّ الجنون المطبق! كما أنشد الصيدلاني:

قالت جُننت على رأسي فقلت لها ... العشق أعظم مما بالمجانين
العشق ليس يُفيق الدهر صاحبه ... وإنما يُصرع المجنون في الحين

فصاحبه أحق أن يشبه بعابد الوثن والعاكف على التماثيل؛ فإن عكوف قلب العاشق على صورة محبوبه وتمثاله يُشبه عكوف عابد الصّنم على صنمه[1].

❊ ❊ ❊

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٨٦٨-٨٧٣).



المرقاة الخامسة عشرة

كمال الإيمان يوجب سعة الرحمة

ولما كان نصـــيب كل عبد من الرحمة على قدر نصـــيبه من الهدى، كان أكمل المؤمنين إيمانًا أعظمهم رحمة، كما قال تعالى في أصحاب رسول الله ﷺ: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ ﴾[الفتح: ٢٩]، وكان الصديق رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ من أرحم الأمة وقد روي عن أنه قال: «أرحمُ أمَّتي بأمَّتي أبو بكر» رواه الترمذي[1].

وكان أعلم الصحابة بإتفاق الصحابة، كما قال أبوسعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ: وكان أبو بكر رَضِيَٱللَّهُعَنۡهُ أعلمنا به – يعني – يعني النبي ﷺ، فجمع الله له بين سعة العلم والرحمة، وهكذا الرجل كلما اتسع علمه اتسعت رحمته.

وقد وسع ربُنا كلَّ شيءٍ رحمة وعلمًا، فوسعت رحمته كل شيء، وأحاط بكل شيء علمًا، فهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها، بل هو أرحم بالعبد من نفســه كما هو أعلم بمصلحة العبد من نفسه، والعبد لجهله بمصالح نفسه وظلمه لها، يسعى فيما يضـــرها ويؤلمها، وينقص حظها من كرامته وثوابه، ويبعدها من قربه، ويظن أنه ينفعها ويكرمها.

---

(١) ورواه أحمد وابن ماجه وسنده صحيح، كما في الصحيحة رقم (١٢٢٤) وللزيادة: راجع إغاثة اللهفان (ص ٨٩٩).

وهذا غاية الجهل والظلم، والإنسان ظلوم جهول، فكم من مكرم لنفسه بزعمه وهو لها مهين ومُرفه لها، وهو لها متعب، ومعطيها بعض غرضها ولذتها، وقد حال بينها وبين جميع لذَّاتها، فلا علم له بمصالحها التي هي مصالحها ولا رحمة عنده لها.

فما يبلغ عدوُّه منه ما يبلغ هو من نفسه، وقد بخسها حظَّها وأضاع حقَّها، وعطَّل مصالحها، وباع نعيمها الباقي، ولذتها الدائمة الكاملة بلذة فانية مشوبة بالنَّغص، إنما هي كأضغاث أحلام، أو كطيفٍ زار في المنام، وليس هذا بعجيب من شأنه وقد فقد نصيبه من الهُدى والرحمة، فلو هُدي ورحم لكان شأنه غير هذا الشأن، ولكن الرب تعالى أعلم بالمحلِّ الذي يصلُح للهُدى والرَّحمة فهو الذي يؤتيها العبد كما قال عن عبده الخضر ـ: ﴿ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف: ٦٥] ، ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴾ [الكهف: ١٠].

ولهذا كان من تمام رحمة أرحم الراحمين تسليطُ أنواع البلاء على العبد؛ فإنه أعلم بمصلحته، فابتلاؤه له وامتحانه، ومنعه من كثير من أغراضه وشهواته من رحمته به، ولكن العبد لجهله وظلمه يتَّهم ربه، ولا يعلم إحسانه إليه بابتلائه وامتحانه.

وقد جاء في الأثر: «إن المبتلى اذا دُعي له: اللهم ارحمه، يقول الله سبحانه

كيف أرحمه من شيء به أرحمه؟!»، وفي أثر آخر: «**إن الله إذا أحب عبده، حماه الدنيا وطّيباتها وشــهواتها كما يحمي أحدكم مريضــه**»، فهذا من تمام رحمته به لا من بخله عليه!

كيف وهو الجواد الماجد الذي له الجود كله، وجود جميع الخلائق في جنب جوده أقل من ذرَّة في جبال الدنيا ورمالها، فمن رحمته ســبحانه بعباده ابتلاهم بالأوامر والنواهي رحمة وحمية، لا حاجة منه إليهم بما أمرهم به، فهو الغني الحميد ولا بُخلًا منه عليهم بما نهاهم عنه فهو الجواد الكريم.

ومن رحمته أن نغَّص عليهم الدنيا وكدَّرها، لئلا يسكنوا إليها، ولا يطمئنوا إليها، ويرغبوا في النعيم المقيم في دار وجواره، فســاقهم إلى ذلك بسِــياط الابتلاء والامتحان، فمنعهم ليعطيهم وابتلاهم ليُعافيهم وأماتَهم ليُحييهم.

ومن رحمته بهم أن حذّرهم نفســه لئلا يغترُّوا به، ويعاملوه بما لا تحســن معاملته به كما قال تعالى: ﴿ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ٣٠][1].وقال غير واحدٍ من السَّلف: من رأفتِه بالعِباد حذَّرهم نفسَه لئلا يغترُّوا به.



(١) يُنظر: إغاثة اللهفان، (٢/ ٨٩٩-٩٠٣).

المرقاة السادسة عشرة

ابتلاء المؤمن رفعة وتمحيص

إن ابتلاء المؤمن كالدواء له، يستخرج منه الأدواء التي لو بقيت فيه أهلكته أو نقصت ثوابه وأنزلت درجته، فيستخرج الابتلاء والامتحان منه تلك الأدواء ويستعد به لتمام الأجر وعُلوِّ المنزلة، ومعلوم أنَّ وجود هذا خير للمؤمن من عدمه كما قال النبي ﷺ: **«والذي نفسي بيده لا يقضي الله للمؤمن قضاءً إلا كان خيرًا له وليس ذلك إلا للمؤمن إن أصابته سرّاء شكر فكان خيرًا له، وإن أصابته ضرّاء صبر فكان خيرًا له»** رواه مسلم.

فهذا الابتلاء والامتحان من تمام نصره وعزه وعافيته ولهذا كان **«أشد النَّاس بلاء الأنبياء، ثُمَّ الأقرب إليهم فالأقرب، يبتلى المرء على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة شُدد عليه البلاء، وإن كان في دينه رِقَّة خُفِّف عنه، ولا يزال البلاء بالمؤمن حتَّى يمشي على وجه الأرض وما عليه خطيئة»**.

إن ما يصيب المؤمن في هذه الدار من إدالة عدوّه عليه، وغلبته له وأذاه له في بعض الأحيان أمر لازم لا بد منه، وهو كالحرِّ الشديد والبرد الشديد، والأمراض، والهموم، والغموم فهذا أمر لازم للطبيعة والنشأة الإنسانية في هذه الدار، حتَّى للأطفال والبهائم لما اقتضته حكمة أحكم الحاكمين.

فلو تجرَّد الخير في هذا العالم عن الشر، والنفع عن الضر، واللَّذَّة عن الألم

لكان ذلك عالمًا غير هذا، ونشـــأة أخرى غير هذه النشـــأة، وكانت تفوت الحكمة التي مُزج لأجلِها بين الخير والشرـ، والألم واللذة، والنافع والضـــار، وإنما يكون تخليص هذا من هذا وتمييزه في دار أخرى غير هذه الدار كما قال تعالى: ﴿ لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ﴾ [الأنفال: ٣٧].

إن ابتلاء بغلبة عدوهم عليهم لهم وقهرهم وكسـرهم لهم أحيانًا فيه حكم عظيمة، لا يعلمها على التفصيل إلا الله عز وجل، منها استخراج عبوديتهم وذُلهم لله وانكسارهم له وافتقارهم إليه وسؤاله نصـــرهم على أعدائهم، ولو كانوا دائمًا قاهرين غالبين لبطروا وأشِروا، ولو كانوا دائما مقهورين مغلوبين منصـورا عليهم عدوهم لما قامت للدين قائمة ولا كانت للحق دولة.

فاقتضـــت حكمة أحكم الحاكمين أن صرّفهم بين غلبهم تارةً، وكونهم مغلوبين تارةً، فإذا غُلبوا تضرـعوا إلى ربهم وأنابوا وخضـعوا وانكسرـوا له وتابوا إليه، وإذا غلبوا أقاموا دينه وشـــعائره وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر وجاهدوا عدُوَّه ونصروا أولياءه.

ومنها لو أنهم كانوا دائمًا منصـــورين غالبين قاهرين لدَخل معهم من ليس قصده الدين ومتابعة الرسول، فإنَّه إنَّما ينضاف إلى من له الغلبة والعِزَّة.

ولو كانوا مقهورين مغلُوبين دائمًا لم يدخل معهم أحدٌ، فاقتضـــت الحكمة

الإلهية أن كانت لهم الدولة تارة، وعليهم تارة؛ فيتميز بذلك، من يريد الله ورسوله ومن ليس له مراد إلا الدنيا والجاه[1].

ابتلاء المؤمن بأهل الدنيا:

الإنســان مدنيٌّ بالطبع، لا بد له أن يعيش مع الناس، والناس لهم إرادات وتصـورات واعتقادات، فيطلبون منه أن يوافقهم عليها فإن لم يوافقهم عليها آذوه وعذبوه، وإن وافقهم حصــل له الأذى والعذاب من وجه آخر، فلا بد من الناس ومخالطتهم ولا ينفكُّ عن موافقتهم أو مخالفتهم.

وفي الموافقة ألم وعذاب -إذا كانت على باطل- وفي المخالفة ألم وعذاب -إذا لم يوافق أهوائهم واعتقاداتهم- ولا ريب أنَّ ألم المخالفة لهم في باطلهم أســهل وأيسر من الألم المُرتَّب على موافقتهم.

واعتبر هذا بمن يطلبون منه الموافقة على ظلم أو فاحشــة أو شــهادة زور أو المعاونة على محرّم، فإن لم يوافقهم آذوه وظلموه وعادوه، ولكن تكون له العاقبة والنصرة عليهم إن صبر واتّقى.

وإن وافقهم فرارًا من ألم المخالفة أعقبه ذلك من الألم أعظم من الألم أعظم مما فرَّ منه، والغالب أنهم يسـلَّطون عليه؛ فيناله من الألم منهم أضـعاف ما ناله من

---

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٩٢١-٩٢٣).

اللذة أولًا بموافقتهم.

أقسام البلاء الذي يصيب العبد:

إن البلاء الذي يصيب العبد في الله لا يخرج عن أربعة أقسام، فإنه يكون في نفسه، أو في ماله، أو في عرضه، أو في أهله ومن يحب.

والذي في نفسه قد يكون بتلفها تارة، وبتألمها بدون التلف. فهذا مجموع ما يبتلى به العبد في الله.

وأشد هذه الأقسام المصيبة في النفس.

ومن المعلوم أنَّ الخلق كلهم يموتون وغاية هذا المؤمن أن يُستشهد في الله وتلك أشرف الموتات وأسهلها فإنَّه لا يجد الشهيد من الألم إلا مثل ألم القرصة، فليس في قتل الشهيد مصيبة زائدة على ما هو معتاد لبني آدم.

فمن عد مصيبة هذا القتل أعظم من مصيبة الموت على الفراش فهو جاهل، بل موت الشهيد من أيسر الموتات وأفضلها وأعلاها، ولكن الفارّ يظن أنه بفراره يطول عمره فيتمتع بالعيش، وقد أكذب الله سبحانه هذا الظن حيث يقول: ﴿ قُل لَّن يَنفَعَكُمُ ٱلْفِرَارُ إِن فَرَرْتُم مِّنَ ٱلْمَوْتِ أَوِ ٱلْقَتْلِ وَإِذًا لَّا تُمَتَّعُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ [الأحزاب: ١٦].

فأخبر الله أن الفرار من الموت بالشهادة لا ينفع؛ فلا فائدة فيه، وأنه لو نفع لم ينفع إلا قليلًا، إذ لا بد له من الموت، فيفوته بهذا القليل ماهو خير منه وأنفع من حياة

الشـهيد عند ربه، ثم قال: ﴿ قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِى يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةً ۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [الأحزاب: ١٧]، فأخبر سبحانه أنَّ العبد لا يعصمه أحد من الله إن أراد به سوءًا غير الموت الذي فر منه، فإنَّه فر من الموت لَمَا كان يسوؤه، فأخبر الله سبحانه أنه لو أراد به سوءًا غيره لم يعصمه أحد من الله، وأنه قد يفر مما يسوؤه من القتل في سبيل الله، فيقع فيما يسوؤه مما هو أعظم منه.

وإذا كان هذا في مصـيبة النفس فهكذا الأمر في مصـيبة المال والعرض والبدن، فإن من بخل بماله أن ينفقه في سبيل الله تعالى وإعلاء كلمته، سلبه الله إياه أو قيض له إنفاقه فيما لا ينفعه دنيا ولا أخرى، بل فيما يعود عليه بمضرـته عاجلًا وآجلًا إن حبسه وادَّخره منعه التمتُّع به ونقله إلى غيره فيكون له مهنأه وعلى مخلّفه وزره!

وكذلك من رفَّه بدنه وعرضـه، وآثر راحته على التَّعب لله وفي سـبيله، أتعبه الله سـبحانه أضـعاف ذلك في غير سـبيله ومرضـاته، وهذا أمرٌ يعرفه الناس بالتجارب.

قال أبو حازم: لما يلقى الذي لا يتقي الله من معالجة الخلق أعظم مما يلقى الذي يتقي الله من معالجة التقوى.

واعتبر ذلك بحال إبليس، فإنه امتنع من السجود لآدم، فرارًا أن يخضع له

ويذل، وطلب إعزاز نفسه فصيره الله أذلَّ الأذلين، وجعله خادمًا لأهل الفُسوق والفجور من ذريَّته، فلم يرضَ بالسجود له، ورضي أن يخدم هو وبنوه فُساق ذريته، وكذلك عُبَّاد الاصنام أَنِفُوا أن يتبعوا رسولًا من البشر، أن يعبدوا إلهًا واحدًا سبحانه، ورضوا أن يعبدوا الهًا من الأحجار !!

وكذلك كل من امتنع أن يذل لله، أو يبذل ماله في مرضاته، أو يتعب نفسه في طاعته، لابد أن يذل لمن لا يسوى، ويبذل له ماله ويتعب نفسه وبدنه في طاعته ومرضاته وعقوبةً له، كما قال بعض السلف: من امتنع أن يمشي مع أخيه خُطوات في حاجته، أمشاه الله تعالى أكثر منها في غير طاعته[1].

قاعدة في الابتلاء:

إذا ابتلى الله عبده بشيء من أنواع البلايا والمحن فإنَّ رده ذلك الإبتلاء والإمتحان إلى ربه، وجمعه عليه، وطرحه ببابه، فهو علامة سعادته وإرادة الخير به، والشدة بتراء لا دوام لها وأن طالت، فتقلع عنه حين تقلع وقد عوض منها أجلَّ عوض وأفضله، وهو رجوعه إلى الله بعد أن كان شاردًا عنه وإقباله عليه بعد أن كان نائيًا عنه، وانطراحه على بابه وقد كان عنه معرضًا وللوقوف على أبواب الخير متعرضًا.

(١) يُنظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٩٢٦-٩٢٧).

وكانت البلية في حق هذا عين النعمة وإن ساءته وكرهها طبعه ونفرت منها نفسه. فربما كان مكروه النفوس إلى محبوبها سببًا ما مثله سبب.

وقوله تعالى في ذلك هو الشفاء والعصمة: ﴿ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة: ٢١٦].

وإن لم يرده ذلك البلاء إليه، بل شرد قلبه عنه ورده للخلق، وأنساه ذكر ربه والضراعة إليه والتذلل بين يديه والتوبة والرجوع إليه فهو علامة شقاوته وإرادة الشر به، فهذا إذا أقلع عنه البلاء رده إلى حكم طبيعته وسلطان شهوته ومرحه وفرحه، فجاءت طبيعته عند القدرة بأنواع الأشر والبطر والإعراض عن شكر المنعم عليه بالسراء، كما أعرض عن ذكره والتضرع إليه في الضراء.

فبلية هذا وبال عليه وعقوبة نقص في حقه، وبلية الأول تطهير له ورحمة، وتكميل وبالله التوفيق[١].

❊❊❊

(١) يُنظر: طريق الهجرتين (١/٣٤٨)، عالم الفوائد.



المرقاة السابعة عشرة

معرفة فضل الله على العبد

اضرع إلى الذي عصمك من السُّجود للصنم، وقضى لك بقدم الصِّدق في القِدم، أن يُتِّم عليك نعمة هو ابتدأها، وكانت أوليتها منه بلا سبب منك.

واسمُ بهمَّتك عن ملاحظة الأغيار، ولا تركن إلى الرُّسوم والآثار، ولا تقنع بالخسيس والدُّون، وعليك بالمطالب العالية والمراتب السَّامية التي لا تنال إلا بطاعة الله إن الله عز وجل قضى أن لا ينال ما عنده إلا بطاعته.

ومن كان لله كما يريد كان الله له فوق ما يريد، فمن أقبل إليه تلقَّاه من بعيد، ومن تصرّف بحوله وقوته ألان له الحديد، ومن ترك لأجله أعطاه فوق المزيد، ومن أراد مرادها الديني أراد ما يريد.

ثم اسمُ بسرِّك إلى المطلب الأعلى، واقصر حبك وتقربك على من سبق فضله وإحسانه إليك كل سبب منك، بل هو الذي جاد عليك بالأسباب وهيأها لك، وصرف عنك موانعها وأوصلك بها إلى غايتك المحمودة.

فتوكل عليه وحده وعامله وحده، وآثر مرضاته وحده، واجعل حُبه ومرضاته هو كعبة قلبك التي لا تزال إلا طائفًا بها، مستسلمًا لأركانها واقفًا بملتزمها.

فيا فوزك ويا سـعادتك إن اطَّلع سـبحانه على ذلك من قلبك، ماذا يفيض عليك من ملابس نعمه وخِلَع أفضـاله! «اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد» سبحانك وبحمدك [١].

***

(١) يُنظر: طريق الهجرتين (١/ ٤٩)، طبعة عالم الفوائد، بكر أبوزيد.



المرقاة الثامنة عشرة

غنى المؤمن بالله وفقره إليه

لما كان الفقر إلى الله عز وجل هو عينُ الغِنى به، فأفقرُ النَّاس إلى الله أغناهُم به وأذلَّهم له أعزُّهم، وأضعفهم بين يديه أقواهم، وأجهلهم عند نفسه أعلمُهم بالله وأمقتهم لنفسه أقربهم إلى مرضاة الله = كان ذكر الغنى بالله مع الفقر إليه متلازمين متناسبين، فنذكر فصلا نافعًا في الغني العالي.

واعلم أنَّ الغنى على الحقيقة لا يكون إلا لله الغني بذاته عن كل ما سواه، وكل ما سواه فموسوم بسمة الفقر، كما هو موسوم بسمة الخلق والصنع، فكما أن كونه مخلوقًا أمر ذاتي له، فكونه فقيرًا أمرٌ ذاتي له، وغناه أمر نسبي إضافي عارض له، فإنَّه إنما استغنى بأمر خارج عن ذاته، فهو غنيٌّ به فقير إليه، ولا يوصف بالغنى على الإطلاق إلا من غناه من لوازم ذاته فهو الغني بذاته عما سواه وهو الأحد، الصمد الغني الحميد.

والغنى قسمان: غنى سافل، وغنى عال.

فالغنى السافل:

الغنى بالعواري المستردة من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسوّمة والأنعام والحرث، وهذا أضعف الغنى، فإنَّه غنىً بظل زائل، وعارية ترجع عن قريب إلى أربابها، فإذا الفقر بأجمعه بعد ذهابها، وكأن الغنى بها كان حُلمًا فانقضى. ولا همة أضعف من همة من رضي بهذا الغنى الذي

هو ظلٌّ زائل.

وهذا غنى أرباب الدنيا الذين فيه يتنافسون، وإياه يطلبون، وحوله يحومون، ولا أحب إلى الشيطان، وأبعد من الرحمن، من قلبٍ ملآن بحبِّ هذا الغنى وبالخوف من فقده.

قال بعض السلف: إذا اجتمع إبليس وجنوده لم يفرحوا بشيء كفرحهم بثلاث أشياء: مؤمن قتل مؤمنًا، ورجل يموت على الكفر، وقلب فيه خوف الفقر.

وهذا الغنى محفوف بفقرين: فقر قبله، وفقر بعده، وهو كالغفوة بينهما.

فحقيق بمن نصح نفسه أن لا يغتر به ولا يجعله نهاية مطلبه، بل إذا حصل له جعله سببًا لغناه الأكبر ووسيلة إليه، ويجعله خادمًا من خدمه لا مخدومًا له، وتكون نفسه أعز عليه من أن يعبدها لغير مولاه والحق، أو يجعلها خادمة لغيره.

وأما الغنى العالي:

فقال شيخ الإسلام[1]: هو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: غنى القلب، وهو سلامته من السبب، ومسالمته للحكم، وخلاصه من الخصوم.

والدرجة الثانية: غنى النفس، وهو استقامتها على المرغوب، وسلامتها

(١) يُنظر: الإمام عبد الله الأنصاري الهروي في كتابه (منازل السائرين).

من المسخوط وبراءتها من المراءاة.

والدرجة الثالثة: الغنى بالحق.

والقلب إذا استغنى بما فاض عليه من مواهب ربه وعطاياه السنية، خلع على الأمراء والرعية خلعًا تناسبها:

فخلع على النفس خلع الطمأنينة والسكينة والرضا والإخبات؛ فأدت الحقوق سماحة لا كظمًا، بل انشراحًا ورضا ومبادرة، وذلك؛ لأنها جانست القلب حينئذ ووافقته في أكثر أموره، واتحد مرادهما غالبًا، فصارت له وزير صدق، بعد أن كانت عدوًا مبارزًا بالعداوة، فلا تسأل عما أحدثت هذه المؤازرة والموافقة من طمأنينة ولذة عيش ونعيم هو رقيقة من نعيم أهل الجنة!

هذا، ولم تضع الحرب أوزارها فيما بينهما، بل عُدتها وسلاحها كامن متوارٍ لولا قوَّة سُلطان القلب وقهره لحاربت بكل سِلاح، فالمرابطة على ثغري الظاهر والباطن فرض معيَّن مدة أنفاس الحياة:

وتنقضي الحرب، محمود عواقبها ... وللصابرين وحظ الهرب الندم[1].

***

(١) يُنظر: طريق الهجرتين (١/ ٦٥-٦٩)، أبو بكر زيد.

المرقاة التاسعة عشرة

استشعار المؤمن ذكر الله له

من نعمة الله عليك ذكره إيَّاك!!

فأول هذه الدرجة أن تشهد ذكر الله عز وجل إياك قبل ذكرك له، وأنه تعالى ذكَرك فيمن ذكَره من مخلوقاته قبل وجودك وطاعتك وذكرك، فقدر خلقك وعملك ورزقك وإحسانه إليك ونعمه عليك حيث لم تكن شيئًا البته.

وذكرك سبحانه بالإسلام فوفقك له، واختارك له دون من خذله قال تعالى: ﴿هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ﴾ [الحج: ٧٨]، فجعلك أهلًا لما لم تكن أهلًا له قط، وإنما هو الذي أهَّلك بسابق ذكره، فلولا ذكره لك بكل جميل أولاكه لم يكن لك إليه سبيل.

ومن الذي ذكَّرك باليقظة حتَّى استيقظت وغيرُك في رقدة الغفلة مع النوام!! ومن الذي ذكرك سواه بالتوبة حتَّى وفقك لها، وأوقعها في قلبك وبعث دواعيك عليها، وأحيا عزماتك الصادقة عليها، حتى تُبت إليه وأقبلت عليه، فقذفت حلاوة التوبة بردها ولذتها؟

ومن الذي ذكَّرك سواه بمحبته حتى هاجت من قلبك لواعجها، وتوجهت نحوه سبحانه ركائبها، وعمر قلبك بمحبته بعد طول الخراب، وآنسك بقربه بعد طول الوحشة والاغتراب ؟

ومن تقرب إليك أولًا حتَّى تقرَّبت إليه، ثُمَّ أثابك على هذا التقرب تقربًا آخر، فصـــار التقرب منك محفوفًا بتقربين منه تعالى: تقرب قبله، وتقرب بعده، والحب منك محفوفًا بحبين: حب قبله، وحب بعده، والذكر منك محفوفًا بذكرين: ذكر قبله، وذكر بعده ؟

فلولا ســابق ذكره إياك لم يكن من ذلك كله شيء، ولا وصــل إلى قلبك ذرةٌ مما وصـــل إليه من معرفته وتوحيده ومحبته وخوفه ورجائه والتوكل عليه والإنابة إليه والتقرب إليه، فهذه كلها آثار ذكره لك[1].

❊❊❊

(١) يُنظر: طريق الهجرتين (١/ ٨٤)، أبو بكر زيد .

المرقاة العشرون

وصف الفقراء إلى الله

الفقير إلى الله تعالى خا ضع، متوا ضع، سليم القلب، سلس الإنقياد للحق، سريع القلب إلى ذكر الله، بريء من الدعاوى لا يدعي بلسانه ولا بقلبه ولا بحاله، زاهد في كل ما سوى الله، راغب في كل ما يقرب إلى الله، قريب من الناس، أبعد شيء منهم، يأنس بما يستوحشون منه، ويستوحش مما يأنسون به، متفرِّد في طريق طلبه، لا تقيده الرُّسوم، ولا تملكه العوائد، ولا يفرح بموجود، ولا يأسف على المفقود.

من جالسه قرَّت عينه به، ومن رآه ذكرته رؤيته بالله، قد حمل كلّه ومؤنته عن الناس، واحتمل أذاهم، وكف أذاه عنهم. وبذل لهم نصيحته، وسبل لهم عرضه ونفسه لا لمعاوضته ولا لذلَّة وعجز ولا يدخل فيما لا يعنيه، ولا يبخل بما لا ينقصه.

وصفه الصدق والعِفَّة والإيثار والتواضع والحلم والوقار والإحتمال، لا يتوقع لما يبذله للناس منهم عوضًا، ولا مدحه، ولا يعاتب، ولا يخاصم، ولا يطالب، ولا يرى له على أحد حقًا، ولا يرى له على أحد فضلًا.

مقبل على شأنه، مكرم لإخوانه، بخيل بزمانه، حافظ للسانه، مسافر في ليلة ونهاره، ويقظته ومنامه ولا يضع عصا السير عن عاتقه حتَّى يصل إلى مطلبه.

قد رُفع له علم الحبِّ، فشمر إليه، وناداه داعي الاشتياق فأقبل بكليته عليه أجاب منادي المحبة إذ دعاه: حيّ على الفلاح وواصــل السُرــى في بيداء الطلب، فحمد عند الوصول مسراه، وإنما يحمد القوم السُرى عند الصباح:

فـحـيّ عـلى جـنـات عـدن فـإنهـا	مـنـازلـك الأولى وفـيـهـا المـخـيـم
ولـكـنـنـا ســبـي الـعـدو فـهـل	ترى نعـود إلى أوطـانـنـا ونسـلّم
وحيّ على روضـــاتها وخيـامها	وحيّ على عيش بها ليس يُســأم[1]

❊ ❊ ❊

(١) يُنظر: طريق الهجرتين (١/١٠٦-١٠٨)، أبو بكر زيد .

المرقاة الحادية والعشرون

يريدك الله لمصلحتك، والناسُ يريدونك لمصالحهم

يريدك الناس لمصالحهم، والله يريدك لنجاة نفسك:

إذا تبين هذا، ظهر أنَّ أحدًا من المخلوقين لا يقصد منفعتك بالقصد الأول، بل إنَّما يقصد منفعته بك، وقد يكون عليك في ذلك ضرر إذا لم يراع المحب العدل، فإذا دعوته فقد دعوت من ضرُّه أقرب من نفعه.

وأما الرب تبارك وتعالى فهو يريدك لك ولمنفعتك لا لينتفع بك، وذلك منفعة لك محضة لا ضرر فيها.

فتدبر هذا حق التدبر وراعه حق المراعاة، فملاحظته تمنعك أن ترجو المخلوق أو تطلب منه منفعة لك، فإنه لا يريد ذلك البتة بالقصد الأول، بل إنما يريد انتفاعه بك عاجلًا أو آجلًا، فهو يريد نفسه لا يريدك، ويريد نفع نفسه بك لا نفعك بنفسه.

فتأمل ذلك، فإن فيه منفعة عظيمة وراحة ويأسًا من المخلوقين وسدًا لباب عبوديَّتهم، وفتحًا لباب عبودية الله وحده.

فما أعظم حظّ من عرف هذه المسألة ورعاها حق رعايتها!

ولا يحملنَّك هذا على جفْوة الناس، وترك الإحسان إليهم واحتمال أذاهم،

بل أحسن إليهم لله لا لرجائهم، فكما لا تخفهم فلا ترجهم.

ومما يبين ذلك أنَّ غالب الخلق يطلبون إدراك حاجتهم بك، وإن كان ذلك ضررًا عليك؛ فإن صاحب الحاجة أعمى لا يرى إلا قضاءها، فهم لا يبالون بمضرتك، وإذا أدركوا منك حاجاتهم، بل لو كان فيها هلاك دنياك وآخرتك لم يبالوا بذلك.

وهذا إذا تدبره العاقل علم أنه عداوة في صورة صداقة، وأنه لا أعدى للعاقل اللبيب من هذه العداوة.

فهم يريدون أن يصيروك كالكير، تنفخ بطنك وتعصر أضلاعك في نفعهم ومصالحهم، بل لو أبيح لهم أكلك لجزروك كما يجزرون الشاة!

وكم يذبحونك كل وقت بغير سكين لمصالحهم.

وكم اتخذوك جسرًا ومعبرًا لهم إلى أوطارهم وأنت لا تشعر.

وكم بعت آخرتك بدنياهم وأنت لا تعلم، وربما علمت!

وكم بعت حظك من الله بحظوظهم منك، ورحت صفر اليدين!

وكم فوّتوا عليك من مصالح الدارين، وقطعوك عنها، وحالوا بينك وبينها، وقطعوا عليك طريق سفرك إلى منازلك الأولى ودارك التي دُعيت اليها.

ثم قالوا: نحن أحبابك، وخدمك، وشيعتك، وأعوانك، والساعون في



مصالحك، وكذبوا!

والله إن هم إلا أعداء في صـورة أولياء، وحرب في صـورة مسـالمين، وقُطاع طريق في صورة أعوان.

فواغــوثاه ثم واغــوثاه بالله الذي يغيث ولا يغاث![1].

❊ ❊ ❊

(١) يُنظر: طريق الهجرتين، (١/ ١٣٠).



المرقاة الثانية والعشرون

إدراك العبد حكمة حبس الرزق عنه

جماع هذا أنَّك إذا كُنت غير عالم بمصلحتك، لا قادر عليها ولا مريد لها كم ينبغي فغيرك أولى أن لا يكون عالمًا بمصلحتك ولا قادرًا عليها، ولا مريدًا لها.

والله سبحانه يعلم ولا تعلم ويقدر ولا تقدر، ويعطيك من فضله لا لمعاوضة ولا لمنفعة يرجوها منك ولا لتكثُّر بك، ولا لتعزز بك، ولا يخاف الفقر ولا تنقص خزائنه على سعة الإنفاق.

ولا يحبس فضله عنك لحاجة منه إليه واستغناء به بحيث إذا أخرجه أثّر ذلك في غناه.

وهو يحب الجود والبذل والعطاء والإحسان أعظم مما تحب أنت الأخذ والانتفاع بما سألته، فإذا حبسه عنك فاعلم أنك أنت الواقف في طريق مصالحك، وأنت المعوّق لوصول فضله إليك، وأنت حجر في طريق نفسك.

وهذا الأمر هو الأغلب على الخليقة؛ فإن الله سبحانه قضى فيما قضى به أن ما عنده لا ينال إلا بطاعته، وأنه ما استجلبت نعم الله بغير طاعته، ولا استديمت بغير شكره، ولا عوقّت وامتنعت بغير معصيته.

وكذلك إذا أنعم عليك ثم سلبك النعمة فإنَّه لم يسلبها لبخل منه ولا



ا ستئثار بها عليك، وإنما أنت السبب في سلبها عنك، فإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم: ﴿ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [الانفال: ٥٣].

فما أزيلت نعم الله بغير معصيته:

إذا كنت في نعمة فارعها   فإن الذنوب تزيل النعم

فآفتك من نفسك وبلاؤك منك، وأنت في الحقيقة الذي بالغت في عداوتك، وبلغت من معاداة نفسك ما لا يبلغ العدو منك كما قيل:

ما يبلغ الأعداءُ من جاهل   ما يبلغ الجاهل من نفسِه

ومن العجب أن هذا شأنك مع نفسك، وأنت تشكو المحسن البريء عن الشكاية، وتتهم أقداره وتعاتبها وتلومها! فقد ضيعت فرصتك، وفرطت في حظك وعجز رأيك عن معرفة أسباب سعادتك وإرادتها، ثم قعدت تعاتب القدر بلسان الحال والقال، فأنت المعني بقول القائل:

وعاجز الرأي مضياع لفرصته   حتى إذا فات أمر عاتب القدر

ولو شعرت بدائك، وعلمت من أين دهيت ومن أين أُصبت، لأمكنك تدارك ذلك ولكن قد فسدت الفطرة، وانتكس القلب، وأطفأ الهوى مصابيح العلم والإيمان منه فأعرضت عمن أصل بلائك ومصيبتك منه، وأقبلت تشكو

من كل إحسان دقيق أو جليل وصل إليك فمنه، فإذا شكوته إلى خلقه كنت كما قال بعض العارفين، وقد رأى رجلا يشكو إلى آخر ما أصابه ونزل به: يا هذا تشكو من يرحمك إلى من لا يرحمك!

وإذا عرتك مصيبة فاصبر لها ... صبر الكريم فإنه بك أرحم
واذا شكوت إلى ابن آدم ... إنَّما تشكو الرحيم إلى الذي لا يرحم

وإذا علم العبد حقيقة الأمر، وعرف من أين أُتي، ومن أي الطرق أُغير على سرحه، ومن أي ثغرةٍ سُرِق متاعه وسلب استحيا من نفسه -إن لم يستحي من الله- أن يشكو أحدًا من خلقه، أو يتظلَّمهم أو يرى مصيبته وآفته من غيره.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتۡ أَيۡدِيكُمۡ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴾ [الشورى: ٣٠] (١).

* * *

(١) يُنظر: طريق الهجرتين، (١/ ١٣٣).



المرقاة الثالثة والعشرون

إدراك حكمة الله تعالى في عدم تعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير

وهل في الحكمة الإلهية تعطيل الخير الكثير لأجل شر جزئي يكون من لوازمه؟ فهذا الغيث يحيي الله به البلاد والعباد والشجر والدواب، كم يحبس من مسافر ويمنع من قصّار ويهدم من بناء، ويعوق عن مصلحة؟ ولكن أين هذا مما يحصل به من المصالح؟

وهل هذه المفاسد في جنب مصالحه إلا كتفلة في بحر؟ وهل تعطيله لئلا تحصل به هذه المفاسد إلا موجبًا لأعظم المفاسد والهلاك؟.

وهذه الشمس التي سخرها الله لمنافع عباده وإنضاج ثمارهم وأقواتهم وتربية أبدانهم وأبدان الحيوانات والطير، وفيها من المنافع والمصالح ما فيها، فكم تؤذي مسافرًا وغيره بحرّها، وكم تجفف رُطوبةً وكم تُعطش حيوانًا، وكم تحبس عن مصلحة، وكم تنشف من مورد، وتحرق من زرع !

ولكن أين يقع هذا من جنب ما فيها من المنافع والمصالح الضرورية والمكملة ؟ فتعطيل الخير الكثير لأجل الشر اليسير شر كبير! وهو خلاف موجب الحكمة الذي تنزه الله سبحانه عنه.

قلت لشيخ الإسلام –أي ابن تيمية – فقد كان من الممكن خلق هذه الأمور

مجردةً عن المفاسد، مشتملة على المصلحة الخالصة؟.

فقال: خلق هذه الطبيعة بدون لوازمها ممتنع فإن وجود الملزوم بدون لازمه محال، ولو خلقت على غير هذا الوجه لكانت غير هذه، ولكان عالمًا آخر غير هذا[1].

❊ ❊ ❊

(١) يُنظر: طريق الهجرتين، (١/٣١٢-٢١٤).

المرقاة الرابعة والعشرون

معرفة حكمة خلق الأضداد وتسليط الأعداء

لولا خلق الأضداد وتسليط الأعداء، وامتحان أوليائه بهم لم يستخرج خالص العبودية من عبيده الذين هم عبيده، ولم يحصل لهم عبودية الموالاة فيه، والمعاداة فيه، والحب فيه والبغض فيه، والعطاء له والمنع له. ولا عبودية بذل الأرواح والأموال والأولاد والقوى في جهاد أعدائه ونصرته. ولا عبودية مفارقة الناس أحوج ما يكون إليهم عبده لأجله وفي مرضاته. فلا يتحيز إليهم، وهو يرى محاب نفسه وملاذها بأيديهم، فيرضى بمفارقتهم ومشاقتهم وإيثار موالاة الحق عليهم. فلولا الأضداد والأسباب التي توجب ذلك لم تحصل هذه الآثار.

وأيضًا فلولا تسليط الشهوة والغضب ودواعيهما على العبد لم تحصل له فضيلة الصبر وجهاد النفس، ومنعها من حظوظها وشهواتها محبة لله، وإيثارًا لمرضاته، وطلبًا للزلفى والقرب منه.

وأيضًا فلولا ذلك لم تكن هذه النشأة الإنسانية إنسانية، بل كانت ملكية، فإن الله سبحانه خلق خلقه أطوارًا، فخلق الملائكة عقولًا لا شهوات لها ولا طبيعة تتقاضى منها خلاف ما يراد منها، من مادة نورية لا تقتضي شيئًا من الآثار والطبائع المذمومة.

وخلق الحيوانات ذوات شهوات لا عقول لها.

وخلق الثقلين -الجن والانس- وكب فيها العقول والشـــهوات والطبائع المختلفة المقتضية لآثار مختلفة بحسب موادها وصورها وتركيبها.

وهؤلاء هم أهل الإمتحان والإبتلاء، وهم المعرضون للثواب والعقاب.

ولو شـــاء ســـبحانه لجعل خلقه على طبيعة واحدة وخلق واحد، ولم يُفارق بينهم لكن ما فعله سبحانه هو محض الحكمة وموجب الربوبية ومقتضى الإلهية [1].

❊❊❊

(١) يُنظر: طريق الهجرتين، (١/ ٢٥٥-٢٥٦).



المرقاة الخامسة والعشرون

معرفة أن الله تعالى كل يوم هو في شأن

قال تعالى: ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾، وقال أيضا: ﴿ يَسۡـَٔلُهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ [الرحمن: ٢٩].

يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويكشف غمًا، وينصر مظلومًا، ويأخذ ظالمًا، ويفك عانيًا، ويغني فقيرًا، ويجبر كسيرًا، ويشفي مريضًا، ويقيل عثرةً، ويستر عورةً، ويعز ذليلًا، ويُذل عزيزًا، ويعطي سائلًا، ويذهب بدولة، ويأتي بأخرى، ويداول الأيام بين الناس، ويرفع أقوامًا، ويضع آخرين.

يسوق المقادير التي قدرها قبل خلق السموات والأرض بخمسين ألف عام إلى مواقيتها، فلا يتقدم شيء منها عن وقته ولا يتأخر، بل كل منها قد أحصاه كتابه وجرى به قلمه، ونفذ فيه حكمته، وسبق به علمه.

فهو المتصرف في الممالك كلها وحده وتصرف ملك قادر قاهر عادل رحيم تام الملك، لا ينازعه في ملكه منازع، ولا يعارضه فيه معارض، فتصرفه في المملكة دائر بين العدل والإحسان والحكمة والمصلحة والرحمة، فلا يخرج تصرفه عن ذلك.

وفي تفسـير الحافظ أبي بكر أحمد بكر أحمد بن موسـى بن مردويه من حديث من حديث أبي الدرداء أنه سئل عن قوله تعالى: ﴿ كُلَّ يَوۡمٍ هُوَ فِي شَأۡنٖ ﴾ فقال: سئل عنها رسـو ل الله ﷺ فقال: **«من شـأنه أن يغفر ذنبًا، ويفرج كربًا، ويرفع قومًا، ويضع آخرين»**[(١)][(٢)].

❋ ❋ ❋

(١) يُنظر: أخرجه ابن ماجه وابن حبان من حديث أبي الدرداء مرفوعًا، وقد حسنه البوصيري في مصباح الزجاجة، وذكر محقق صحيح ابن حبان شواهد للحديث، على أن الحديث موقوف.

(٢) يُنظر: طريق الهجرتين، (١/ ٢٦١)، عالم الفوائد، أبوبكر.

المرقاة السادسة والعشرون

مما يجب على الناس مشاهدته في المعاصي والذنوب

مما يجب على الناس مشاهدته في المعاصي والذنوب:

أن يشـــهد حكمة الله في تخليته بينه وبين الذنب، وإقداره عليه وتهيئة أســبابه له، وأنه لو شـــاء لعصـــمه وحال بينه وبينه، ولكنه خلى بينه وبينه لِحِكمٍ عظيمة لا يعلم مجموعها إلا الله:

أحدها: أنَّه سبحانه يحب التوَّابين ويفرح بتوبتهم، فلمحبَّته للتوبة وفرحه بها قضى على عبده بالذَّنب، ثُمَّ إذا كان ممَّن سبقت له العناية قضى له بالتوبة.

الثاني: تعريف العبد عزَّة الرَّبِّ تعالى في قضـــائه وُنفوذ مشـــيئته وجريان حكمه.

الثالث: تعريف حاجته إلى تعريفه حاجته إلى حفظه وصـــيانته، وإنه إن لم يحفظه ويصنه فهو هالك ولابد، والشياطين قد مدت أيديها إليه تمزقه كل ممزق.

الرابع: إرادته من عبده تكميل مقام الذل والانكســـار، فإنَّه متى شـــهد صـــلاحه واســـتقامته شـــمخ بأنفه وظن أنه..... وأنه..... ! فإذا ابتلاه بالذنب تصاغرت عنده نفسه وذلَّت، وتيقن وتمنَّى أنه..... وأنه.

الخامس: تعريف عبده سـعة حلمه تعالى وكرمه في سـتره عليه، فإنه لو شـاء

لعاجله بالذنب ولهتكه بين عباده، ولم يصف له معهم عيش.

السادس: أن يعامل عباده في إساءتهم إليه وزلاتهم معه بما يحب أن يعامله الله به، فإن الجزاء من جنس العمل فيعتمد في ذنوب الخلق معه ما يحب أن يصنعه الله بذنوبه.

السابع: أن يخلع صولة الطاعة والإحسان من قلبه، فتتبدل برقةً ورأفة ورحمة.

الثامن: أن يعريه من رداء العجب بعمله، كما قال النبي ﷺ **«لو لم تذنبوا لخفت عليكم ما هو أشد منه: العجب»**[1].

التاسع: أن يستخرج من قلبه عبوديَّته بالخوف والخشية وتوابعها من البكاء والإشفاق والندم.

العاشر: أن يُعرفه مقدار نعمة معافاته وفضله في توفيقه وعصمته، فإنَّ من تربى في العافية لا يعرف ما يقاسيه المبتلى ولا يعرف مقدار نعمة العافية.

الحادي عشر: أنه إذا شهد إساءته وظلمه، استكثر القليل من نعمة ربه لعلمه بأن الواصل إليه منها كثير على مسيء مثله، واستقلَّ الكثير من عمله، لعلمه

(١) يُنظر: حسنه الألباني في صحيح الجامع فقال: «حسن». انظر حديث رقم: (٥٣٠٣)، في صحيح الجامع للسيوطي، الألباني.

بأنَّ الذي يصلح له أن يغسل به نجاسته ووضر ذنوبه، اضعاف اضعاف ما يفعله فهو دائمًا مستقل لعمله كائنًا ما كان. ولو لم يكن من فوائد الذنب وحكمه إلا هذا وحده لكان كافيًا.

الثاني عشر: إمتحان العبد واختباره هل يصلح لعبوديته وولايته أم لا، فإنَّه إذا واقع الذنب سُلب حلاوة الطاعة والقرب ووقع في الوحشة، فإن كان ممن يصلح اشتاقت نفسه إلى لذَّة تلك المعاملة فحنّت، وأنّت، وتضرعت، واستغاثت بربها، ليردها إلى ما عوَّدها من برِّه ولطفه، وإن ركبت غيَّها واستمر إعراضها لم تحن إلى معهدها الأول ومألفها ولم تحس بضرورتها وفاقتها الشديدة إلى مراجعة قربها من ربها علم أنها لا تصلح لله[1].



(١) يُنظر: طريق الهجرتين (١/ ٣٦٢) عالم الفوائد ، بكر ابوزيد.



المرقاة السابعة والعشرون

حفظ الخواطر

حراسة الخواطر وحفظها والحذر كل الحذر من إهمالها والاسترسال معها؛ فإن أصل الفساد كله من قبلها يجيء؛ لأنها هي بذر الشيطان والنفس في أرض القلب، فإذا تمكن بذرها تعاهدها الشيطان بسقيه مرة بعد أخرى، حتى تصير إرادات، ثم يسقيها حتى تصير عزائم، ثم لا يزال بها حتَّى تثمر الأعمال.

ولا ريب أن دفع الخواطر أيسر من دفع الإرادات والعزائم، فيجد العبد نفسه عاجزا أو كالعاجز عن دفعها بعد أن صارت إرادة جازمة، وهو المفرط إذ لم يدفعها وهي خاطر ضعيف، كمن تهاون بشرارة من نار وقعت في حطب يابس، فلما تمكنت منه عجز عن إطفائها.

فإن قلت: فما الطريق إلى حفظ الخواطر؟

قلت: أسباب عدة:

منها العلم الجازم باطلاع الرب تعالى ونظره إلى قلبك، وعلمه بتفصيل خواطرك.

ومنها حياؤك منه، ومنها إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلقه لمعرفته ومحبته.

ومنها خوفك منه أن تسقط من عينه بتلك الخواطر.

ومنها إيثارك له أن يساكن قلبك غير محبته.

ومنها خشيتك أن تتولد تلك الخواطر ويستعر شرارها فتأكل ما في القلب من الإيمان ومحبة الله وتذهب به جملة وأنت لا تشعر.

ومنها أن تعلم ان تلك الخواطر بمنزلة الحب الذي يلقى للطائر ليصاد به فاعلم أن كل خاطر منها فهو حبة في فخ منصوب لصيدك وأنت لا تشعر.

ومنها أن تلك الخواطر وادي الحمقى وأماني الجاهلين فلا تثمر لصاحبها إلا الندامة والخزي، وإذا غلبت على القلب أورثته الوساوس، وعزلته عن سلطانه وأفسدت عليه رعيته، وألقته في الأسر الطويل.

كما أن هذا معلوم في الخواطر النفسانية، فهكذا الخواطر الإيمانية الرحمانية، هي أصل الخير كله فإن أرض القلب متى بذر فيها خواطر الإيمان والخشية والمحبة والإنابة والتصديق بالوعد ورجاء الثواب، وسُقيت مرة بعد مرة وتعاهدها صاحبها بحفظها ومراعاتها، والقيام عليها أثمرت له كل فعل جميل، وملأت قلبه من الخيرات، واستعملت جوارحه في الطاعات واستقر بها الملك في سلطانه واستقامة له رعيته[1].



(١) يُنظر: طريق الهجرتين، (١/ ٣٧٧)، عالم الفوائد، أبو بكر زيد.



المرقاة الثامنة والعشرون

أقسام العباد في سفرهم إلى ربهم

العباد في سفرهم إلى ربهم ثلاثةُ أقسام:

ظالم لنفسه، ومقتصد وسابق بالخيرات بإذن الله.

وهؤلاء كلهم مستعدون للسير، موقنون بالرجعى إلى الله، ولكن متفاوتون في التزود وتعبئة الزاد واختياره، وفي نفس السير وسرعته وبطئه.

فالظالم لنفسه:

مقصر في الزاد غير آخذ منه ما يبلغه المنزل لا في قدره ولا في صفته، بل مفرد في زاده الذي ينبغي له أن يتزود. مع ذلك فهو متزود ما يتأذي به في طريقه، ويجد غب أذاه إذا وصل المنزل بحسب ما تزود بذلك المؤذي الضار.

والمقتصد:

اقتصر من الزاد ما يبلغه، ولم يشد مع أحمال التجارة الرابحة ولم يتزود ما يضره فهو سالم غانم، لكن فاتته المتاجر الرابحة وأنواع المكاسب الفاخرة.

والسابق بالخيرات:

همُه في تحصيل الأرباح وشد أحمال التجارات لعلمه بمقدار الربح الحاصل، فيرى خسرانًا أن يدخر شيئًا مما بيده ولا يتجر فيه، فيجد في ربحه يوما يغتبط التجار بأرباح تجارتهم، فهو كرجل علم أنَّ أمامه بلدة يكسب الدراهم فيها عشرة

إلى سبعمائة وأكثر، وعنده حاصل وله خبرة بطريق ذلك البلد وخبرة في التجارة، فهو لو أمكنه بيع ثيابه وكل ما يملك حتى يهيئ به تجارة إلى ذلك البلد لفعل.

فهكذا حال السابق للخيرات بإذن ربه، يرى خسرانا بيِّنًا أن يمر عليه وقت في غير متجر(١).

حال الأبرار المقتصدين:

وأما الأبرار المقتصدون فقطعوا مراحل سفرهم بالاهتمام بإقامة أمر الله، وعقد القلب على ترك مخالفته ومعاصيه، فهِممُهم مصروفة إلى القِيام بالأعمال الصالحة، واجتناب الأعمال القبيحة.

فأول ما يستيقظ أحدهم من منامه يسبق إلى قلبه القيام إلى الوضوء والصلاة كما أمره الله، فإذا أدَّى فرض وقته اشتغل بالتلاوة والأذكار إلى حين تطلع الشمس، فركع الضحى، ثم ذهب إلى ما أقامه الله فيه من الأسباب.

فإذا حضر فرض الظهر بادر إلى التطهر والسعي إلى الصفِّ الأول من المسجد، فأدَّى فريضَته كما أُمر مكمِّلًا لها بشرائطها وأركانها وسُننِها وحقائقها الباطنة من الخشوع والمراقبة والحضور بين يدي الرَّبِّ.

فينصرف من الصلاة وقد أثرت في قلبه وبدنه وسائر أحواله آثارًا تبدو على

---

(١) يُنظر: طريق الهجرتين، (١/ ٤٠٤)، عالم الفوائد، أبو بكر زيد.

صفحاته ولسانه وجوارحه، ويجد ثمرتها في قلبه من الإنابة إلى دار الخلود والتجافي عن دار الغرور وقلة التكالب والحرص على الدنيا وعاجلها، قد نهته صـــلاته عن الفحشـــاء والمنكر، وحبّب إليه لقاء الله، ونفرته من كل قاطع يقطعه عن الله فهو مهموم مغموم كأنه في ســجن حتَّى تحضرـ الصــلاة، فإذا حضرـت قام إلى نعيمه وسروره وقرة عينه وحياة قلبه، فهو لا تطيب له الحياة إلا بالصلاة.

هذا وهم في ذلك مراعون لحفظ الســنن لا يخِلُّون منها بشيـء ما أمكنهم، فيقصــدون من الوضــوء أكمله، ومن الوقت أوله، ومن الصـفوف أوّلها عن يمين الإمام أو خلف ظهره.

ويأتون بعد الفريضــة بالأذكار المشرـوعة كالاســتغفار ثلاثًا وقول: **«اللهم أنت السلام، ومنك السلام ، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»**.

وقول: **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. اللهم لا مانع لما أعطيت ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد منك الجد. لا إله إلا الله، ولا نعبد إلا إيّاه، له النعمة وله الفضل وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون»**.

ثم يسبحون و يحمدون ويكبرون تسعًا وتسعين، ويختمون المائة بـ **«لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير»**.

ومن أراد المزيد قرأ آية الكرسي والمعوذتين عقيب كل صــلاة، فإن فيهما

أحاديث رواها النسائيُّ وغيره، ثم يركعون السنة على أحسن الوجوه.

هذا دأبهم في كل فريضة، فإذا كان قبل غروب الشمس توفروا على أذكار المساء الواردة في السنة نظير أذكار الصَّباح الواردة في أول النهار، لا يخلون بها أبدًا، فإذا جاء الليل كانوا فيه على منازلهم من مواهب الربِّ تعالى التي قسمها بين عباده.

فإذا أخذوا مضاجعهم أتوا بأذكار النوم الواردة في السنة، وهي كثيرة تبلغ نحو أربعين، فيأتون منها بما علموه وما يقدرون عليه من قراءة سورة الإخلاص والمعوذتين ثلاثًا ثم يمسحون بها رؤوسهم ووجوههم وأجسادهم ثلاثًا، ويقرؤون آية الكرسي وخواتيم سورة البقرة، ويسبحون ثلاثًا وثلاثين، ويحمدون ثلاثًا وثلاثين، ويكبرون أربعًا وثلاثين.

ثم يقول أحدهم: **«اللهم إني أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك، وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك، لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك. آمنتُ بكتابك الذي أنزلت، ونبيك الذي أرسلت»**.

وإن شاء قال: **«بإسمك ربي وضعت جنبي وبك أرفعه، فإن أمسكت نفسي فاغفر لها، وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»**.

وإن شاء قال: **«اللهم رب السموات السَّبع ورب العرش العظيم، ربي ورب كل شيء، فالق الحب والنوى، منزل التوراة والإنجيل والقرآن، أعوذ بك من شرِّ**

كل دابة أنتَ آخذٌ بناصـيتها. أنت الأوَّلُ فليس قبلك شيء، وأنت الآخر فليس بعدَك شيء، وأنت الظَّاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء، اقض عني الدين واغنِني من الفقر».

وبالجملة فلا يزال يذكر الله على فراشه حتى يغلبه النوم وهو يذكر الله، بهذا منامه عبادة وزيادة له في قربه من الله، فإذا استيقظ عاد إلى عدّانه الأول.

ومع هذا فهو قائم بحقوق العباد من عيادة المرضى، وتشـييع الجنائز وإجابة الدعوة، والمعاونة لهم بالجاه والبدن والنفس، وزيارتهم وتفقدهم؛ وقائم بحقوق أهله وعياله فهو متنقل في منازل العبودية كيف نقله فيها الأمر، فإذا وقع منه تفريط في حق من حقوق الله بادر إلى الاعتذار والتوبة والاستغفار، ومحوه ومداواته بعمل صالح يُزيل أثره. فهذا وظيفته دائمًا[(١)].

حال السابقين المقربين:

فنستغفر الله الذي لا إله إلا هو أولًا من وصف حالهم وعدم الاتصاف به، بل ما شممنا له رائحة، ولكن محبة القوم تحمل على تعرف منزلتهم والعلم به، وإن كانت النفوس متخلفة منقطعة عن اللحاق بهم.

ففي معرفة حال القوم فوائد عديدة منها:

(١) يُنظر: طريق الهجرتين، (١/ ٤٤٢)، عالم الفوائد، أبو بكر زيد.

أن لا يزال المتخلف المسكين مزريًا على نفسه، ذامًّا لها، لائمًا لها.

ومنها أنه لايزال منكسر القلب بين يدي ربه، ذليلًا له حقيرًا، ويشهد منازل السابقين وهو في زمرة المنقطعين، ويشهد بضائع التجار وهو في رفقة المحرومين.

ومنها أنه عساه أن تنهض همته يومًا ما إلى التشبُّث والتعلُّق بساقة القوم ولو من بعيد.

ومنها أنه لعلَّه أن يصـدق في الرغبة واللجأ إلى من بيده الخير كلُّه أن يلحقه بالقوم ويهيئه لأعمالهم، فيصادف ساعةً إجابة لا يسأل الله فيها شيئًا إلا أعطاه.

فاسـمع الآن لوصـف القوم، وأحضرـ ذهنك لشـأنهم العجيب وخطرهم الجليل، فإن وجدت من نفسـك حركةً وهمَّةً إلى التشـبه بهم فاحمد الله وادخُل، فالطريق واضح والباب مفتوح.

إذا أعجبتك خصال امرىء فكنه يكن منك ما يعجبك
فليس على الجود والمكرمات إذا جئتها حاجب يحجبك

فنبأ القوم عجيب وحالهم أعجب، وأمرهم أخفى إلا على من له مشـاركة مع القوم؛ فإنه يطّلع من حالهم على ما يريه إيَّاه القدر المشترك.

وجملة أمرهم أنهم قوم قد امتلأت من معرفة الله، وعُمرت بمحبته وخشـيته وجلاله ومراقبته، فسَرت المحبة في أجزائهم، فلم يبق فيها عِرْق ولا مِفْصل إلا

وقد دخله الحب.

قد أنساهم حبُّه ذكر غيره، وأوحشهم أُنسهم به ممن سواه.

قد فنوا بحبِّه عن حب من سواه، وبذكر عن ذكر من سواه، وبخوفه ورجائه والرغبة إليه والرهبة منه، والتوكل عليه والإنابة إليه، والسُّكون إليه، والتذلل والإنكسار بين يديه؛ عن تعلق ذلك منهم بغيره.

فإذا وضع أحدهم جَنبه على مضجعه صعدت أنفاسه إلى إلهه ومولاه، واجتمع همُّه عليه، متذكرًا صفاته العُلى وأسماءه الحسنى، مشاهدًا له في أسمائه وصفاته، قد تجلَّت على قلبه أنوارُها، فانصبغ قلبُه بمعرفته ومحبته، فبات جسمه في فراشه يتجافى عن مضجعه، وقلبه قد أوى إلى مولاه وحبِيبه، فآواه إليه وأسجده بين يديه خاضعًا خاشعًا ذليلًا منكسرًا من كل جهة من جهاته.

فيالها سجدة ما أشرفها من سجدة، لا يرفع رأسه منها إلا يوم اللقاء !

فإذا استيقظ أحدهم، وقد بدر إلى قلبه هذا الشأن، فأول ما يجري على لسانه ذكر محبوبه، والتوجه إليه واستعطافه والتملق بين يديه، والاستعانة به ألا يخلي بينه وبين نفسه، وألا يكله اليها، فيكله إلى ضيعة وعجز وذنب وخطيئة، بل يكلأه كلاءةَ الوليد الذي لا يملك لنفسه ضرًا ولا نفعًا ولا موتا ولا حياة ولا نشورًا.

فأول ما يبدأ به:

«الحمد لله الذي أحيانا بعد ما أماتنا وإليه النشــور»، متدبرًا لمعناها من ذكر نعمة الله عليه بأن أحياه بعد نومه الذي أخو الموت.

ثم يقول: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل شيء قدير. الحمد الله وسبحان الله والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله».

ثم يدعو ويتضرع.

ثم يقوم إلى الوضوء بقلب حاضر مستصحب لما فيه.

ثم يصلي ما كتب الله له صلاة محب ناصح لمحبوبه متذللا منكسر بين يديه، لا صلاة مدل بها عليه.

يرى من أعظم نعم محبوبه عليه أن أقامه وأنام غيره، واســتزاره وطرد غيره، وأهَّله وحرم غيره، فهو يزداد بذلك محبة إلى محبة. يرى أنَّ قرة عينه وحياة قلبه وجنة روحه ونعيمه ولذته وسروره في تلك الصــلاة، فهو يتمنى طول ليله، ويهتمُّ بطلوع الفجر، كما يتمنى المحب الفائز بوصل محبوبه ذلك.

فهو كما قيل:

يـود أنَّ ظـلام الـلـيـل دام لـه   وزيـد فيـه ســواد القلـب والبصر

فهو يتملق فيها مولاه تملُّق المحب لمحبوبه العزيز الرحيم، ويناجيه بكلامه معطيًا لكل آية حظَّها من العبودية.

فتجذب قلبه وروحه إليه آياتُ المحبة والوداد، والآيات التي فيها الأسماء والصفات، والآيات التي تعرّف بها إلى عباده بآلائه وإنعامه عليهم وإحسانه إليهم.

وتُطيّب له السير آياتُ الرجاء والرحمة وسعة البر والمغفرة، فتكون له بمنزلة الحادي الذي يُطيّب له السير ويهوّنه عليه.

وتقلقه آيات الخوف والعدل والإنتقام وإحلال غضبه بالمعرضين عنه، العادلين به غيره المائلين إلى سواه؛ فتجمعه عليه وتمنعه أن يشرد قلبه عنه.

فتأمل هذه النكتة، وتفقّه فيها، والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.

فوا أسفاه! وواحسرتاه!

كيف ينقضي الزمان وينفد العمر، والقلب محجوب ما شم لهذا رائحة! خرج من الدنيا كما دخل إليها، وما ذاق أطيب ما فيها، بل عاش فيها عيش البهائم، وانتقل منها انتقال المفاليس، فكانت حياته عجزًا، وموته كمدًا، ومعاده حسرةً وأسفًا!

اللهم فلك الحمد، وإليك المشتكى، وأنت المستعان، وبك المستغاث، وعليك التكلان، ولا حول ولا قوة إلا بك.

فإذا صلى ما كتب الله جلس مُطرِقًا بين يدي ربه تعالى هيبةً له وإجلالًا،

واستغفره استغفار من قد تيقَّن أنَّه هالك إن لم يغفر الله له ويرحمه.

فإذا قضى ـ من الاستغفار وطَرًا، وكان عليه بُعد ليل اضطجع على شقه الأيمن مجمًا نفسه، مريحًا لها مقويًا لها، على أداء وظيفة الفرض، فيستقبله نشيطًا بجده وهمّته كأنه لم يزل نائمًا طول ليلته لم يعمل شيئًا.

فهو يريد أن يستدرك ما فاته في صلاة الفجر، فيصلي السنة، ويبتهل بينها وبين الفريضة، فإن لذلك الوقت شأنًا يعرفه من عرفه. ويكثر فيه من قول: **«ياحي ياقيوم لا إله إلا أنت»**، فلهذا الذكر في هذا الموطن تأثير عجيب(١).

ثم ينهض إلى صلاة الصبح قاصدًا الصف الأول عن يمين الإمام أو خلف قفاه. فإن فاته ذلك قصد القرب منه مهما أمكن، فإنَّ للقرب من الإمام تأثيرًا في سر الصلاة، ولهذا القرب تأثيرًا في صلاة الفجر خاصةً يعرفه من عرف قوله تعالى ﴿ وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا ﴾[الإسراء: ٧٨]

قيل يشهده الله عز وجل وملائكتُه.

---

(١) يُنظر: وكان شيخ الإسلام ابن تيمية (قدس الله روحه) شديد اللهج بها جدا وقال لي يوما: «لهذين الاسمين وهما الحي القيوم تأثير عظيم في حياة القلب» وكان يشير إلى أنهما الاسم الأعظم وسمعته يقول: «من واظب على أربعين مرة كل يوم بين سنة الفجر وصلاة الفجر ياحي ياقيوم لاإله إلا أنت برحمتك أستغيث حصلت له حياة القلب ولم يمت قلبه».
مدارج السالكين (١/٤٤٨).

وقيل: يشهده ملائكة الليل والنهار، فيتفق نزول هؤلاء البدل عن صُعود أولئك فيجتمعُون في صلاة الفجر، وذلك لأنَّها في أول ديوان النهار وآخر ديوان الليل فيشهدها ملائكة الليل والنهار.

واحتج لهذا القول بما في الصحيح من حديث الزُّهري عن أبي سَلمة عن أبي هُريرة قال: قال رسول الله ﷺ «**فضل صلاة الجميع على صلاة الواحد خمس وعشرون درجة، وتجتمع ملائكة الليل وملائكة النهار في صلاة الفجر**» يقول أبو هريرة: واقرؤوا إنْ شِئتم ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨].

فإذا فرغ من صلاة الصبح أقبل بكليَّته على ذكر الله والتوجُّه إليه بالأذكار التي شرعت أول النهار، فيجعلها وردًا له لا يخل به أبدًا ثم يزيد عليها ما شاء من الأذكار الفاضلة أو قراءة القرآن حتى تطلع الشمس حسنًا.

فإذا طلعت فإن شاء ركع ركعتي الضحى وزاد ما شاء، وإن شاء قام من غير ركوع.

ثم يذهب متضرعًا إلى ربه، سائلًا له أن يكون ضامنًا عليه متصرفًا في مرضاته بقيّة يومه، فلا يتقلب إلا في شيء يظهر له في مرضاة ربه، وإن كان من الأفعال العاديه الطبيعية قلبه عبادة بالنية، وقصد الاستعانة به على مرضاة الرب.

فإذا جاء فرض الظهر بادر إليه كذلك مكملًا له، ناصحًا فيه لمعبوده كنصح المحب الصادق المحبة لمحبوبه الذي قد طلب من أن يعمل شيئًا ما، فهو لا يبقي مجهودًا، بل يبذل مقدُوره كله في تحسينه وتزيينه وإصلاحه وإكماله، ليقع موقعًا من محبوبه، فينال به لرضاه عنه وقربه منه.

وبالجملة فهذا حال هذا العبد مع ربه في جميع أعماله، فهو يعلم أنه لا يوفي هذا المقام حقه، فهو أبدًا يستغفر الله عقيب كل عمل.

وكان النبي ﷺ إذا سلم من الصلاة يستغفر ثلاثًا وقال تعالى: ﴿ وَبِٱلۡأَسۡحَارِ هُمۡ يَسۡتَغۡفِرُونَ﴾ [الذاريات:١٨][(١)].

❊ ❊ ❊

(١) يُنظر: طريق الهجرتين (١/ ٤٤٦)، عالم الفوائد- بكر أبوزيد.



المرقاة التاسعة والعشرون

معرفة أهل الحقِّ وأهل الباطل

قسم الله سُبْحَانَهُوَتَعَالَىٰ الناس إلى ثلاثة أقسام:

منعم عليهم: وهم أهل الصراط المستقيم، الذين عرفوا الحق واتبعوه.

ومغضوب عليهم: وهم الذين عرفوا الحق ورفضوه.

وضالين: وهم الذين جهلوه فأخطئوه.

فكل من كان أعرف للحق، وأتبع له كان أولى بالصراط المستقيم.

ولا ريب أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ، ورضي الله عنهم هم أولى بهذه الصفة من الرَّوافض، فإنَّه من المحال أن يكون أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ورضي الله عنهم جهلوا الحق وعرفه الروافض، أو رفضوه وتمسك به الروافض.

ثم إنا رأينا آثار الفريقين تدلُّ على أهل الحق منهما، فرأينا أصحاب رسول الله ﷺ فتحوا بلاد الكفر، وقلبوها بلاد إسلام، وفتحوا القلوب بالقرآن والعلم والهدى، فآثارهم تدل على أنهم هم أهل الصراط المستقيم.

ورأينا الرافضة بالعكس في كل زمان ومكان، فإنَّه قط ما قام للمسلمين عدو من غيرهم إلا كانوا أعوانهم على الإسلام، وكم جرُّوا على الإسلام وأهله

من بلية؟ وهل عاثت سُيوف المشركين عُباد الأصنام – من عسكر هولاكو وذويه من التتار– إلا من تحت رؤوسهم؟ وهل عُطِّلت المساجد، وحرقت المصاحف، وقتل سروات المسلمين وعلماؤهم وعُبَّادهم وخليفتُهم إلا بسببهم ومن جرَّائهم؟ ومظاهرتهم للمشركين والنصارى معلومة عند الخاصة والعامة، وآثارهم في الدين معلومة.

فأي الفريقين أحق بالصراط المستقيم؟ وأيهم أحق بالغضب والضَّلال إن كنتُم تعلمُون؟[1].

❊❊❊

(١) يُنظر: مدارج السالكين (١٥٧)، عبدالعزيز الجليل.



المرقاة الثلاثون والعشرون

معرفة حكمة إعطاء العاصي ومنع التقي

وليتأمل العاقل هذا في نفسه وفي غيره، وليعلم أنَّ إجابة الله لسائليه ليست لكرامة كل سائل عليه، بل يسأله عبده الحاجة فيقضيها له، وفيها هلاكه وشقوته، ويكون قضائها له من هوانه عليه، وسقوطه من عينه، ويكون منعه من لكرامته عليه ومحبته له، فمنعه حماية وصيانة وحفظًا لا بخلًا.

وهذا إنما يفعله بعبده الذي يريد كرامته ومحبته، ويعامله بلطفه فيظن – بجهله – أن الله لا يحبه ويراه يقضي حوائج غيره، فيسيء الظن بربه، وهذا حشو قلبه ولا يشعر به، والمعصوم من عصمه الله، والإنسان على نفسه بصيرة، وعلامة هذا: حمله على الأقدار، وعتابه الباطن لها كما قيل:

وعاجزُ الرأيِ مِضياعٌ لفُرصته ... حتَّى إذا فات أمرٌ عاتب القدر

وإذا أعطاك ما أعطاك بلا سؤال، تسأله أن يجعله عونًا لك على طاعته وبلاغًا إلى مرضاته، ولا يجعله قاطعًا لك عنه، ولا مبعدًا عن مرضاته.

ولا تظن أن إعطاءه كل ما أعطى لكرامة عبده عليه، ولا منعه كل ما يمنعه لهوان عبده عليه، ولكن عطاؤه ومنعه ابتلاء وامتحان، يمتحن بهما عباده قال الله تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾

﴿وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ﴾ [الفجر:١٥-١٦] أي ليس كل من أعطيته ونعمته وخولته فقد أكرمته، وما ذاك لكرامته علي ولكنه ابتلاء مني وامتحان له: أيشكرني فأعطيه فوق ذلك، أم يكفرني فأسلبه إياه وأخول فيه غيره؟

وليس كل ما ابتليت فضيقت عليه رزقه وجعلته بقدر لا يفضل عنه، فذلك من هوانِه علي، ولكنه ابتلاء وامتحان مني له: أيصبر؟ فأعطيه أضعاف أضعاف ما فاته من سعة الرزق، أم يتسخط؟ فيكون حظُّه السخط[1] .

❊ ❊ ❊

---

(١) يُنظر: مدارج السالكين (١٦٨-١٧٠)، دار طيبة، ت: عبدالعزيز الجليل.



المرقاة الحادية والثلاثون

إخلاص العمل لله

المخلصون هم أهلُ: ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾ [الفاتحة:٥] حقيقة فأعمالهم كلُّها لله، وأقوالهم لله وعطاءهم لله ومنعهم لله، وحبهم لله وبغضهم لله، فمعاملتهم ظاهرًا وباطنًا لوجه الله وحده.

لا يريدون بذلك من الناس جزاء ولا شكورًا، ولا ابتغاء الجاه عندهم، ولا طلب المحمدة والمنزلة في قلوبهم، ولا هربًا من ذمِّهم، بل قد عدوا الناس بمنزلة أصحاب القبور، لا يملكون لهم ضرًا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا.

فالعمل لأجل الناس وابتغاء الجاه والمنزلة عندهم، ورجاؤهم للضر والنَّفع منهم لا يكون من عارف بهم البتَّة، بل من جاهل بشأنهم، وجاهل بربِّه، فمن عرف الناس أنزلهم منازلهم ومن عرف الله أخلص له أعماله، وأقواله، وعطاءه، ومنعه وحبه وبُغضه، ولا يعامل أحد الخلق دون الله، إلا لجهله بالله وجهله بالخلق، وإلا فإذا عرف الله وعرف الناس آثر معاملة الله على معاملتهم.

ما أعظمها من منزلة، وما أشدها على النفوس، فمن من الناس الذي لا يريد أن يكون له منزلة في قلب من شفع أو قدم له خدمة إلا ما رحم الله!؟ [١].

***

(١) يُنظر: مدارج السالكين (١/ ١٠٤).

المرقاة الثانية والثلاثون

حكم الله في المعاصي والذنوب

من حكم الله في المعاصي والذنوب:

أنه لولا المعصية من أبي البشر -بأكله من الشجرة- لما ترتَّب على ذلك من وجود هذه المحبوبات العِظام للرب تعالى:

من امتحان خلقه وتكليفهم، وإرسال رسله، وإنزال كتبه، وإظهار آياته وعجائبه وتنويعها وتصريفها، وإكرام أوليائه، وإهانة أعدائه، وظهور عدله وفضله، وعزته وانتقامه، وعفوه ومغفرته، وصفحه وحلمه، وظهور من يعبده ويحبه، ويقوم بمراضيه بين أعدائه في دار الابتلاء والامتحان.

فلو قُدِّر أن آدم لم يأكل من الشجرة، ولم يخرج من الجنة هو وأولاده لم يكن شيء من تلك، ولا ظهر من القوة إلى الفعل ما كان كامنًا في قلب إبليس يعلمه الله ولا تعلمه الملائكة ولم يتميز خبيث الخلق من طيبهم، ولم تتم المملكة حيث لم يكن هناك إكرام وثواب وعقوبة وإهانة ودار سعادة وفضل ودار شقاوة وعدل.

وكم في تسليط أوليائه على أعدائه، وتسليط أعدائه على أوليائه، والجمع بينهما في دار واحدة وابتلاء بعضهم ببعض من حكمة بالغة ونعمة سابغة، وكم فيها من حصول محبوب للرب، وحمد له في من أهل سمواته وأرضه، وخضوع وتذلل، وتعبد وخشية وإفتقار إليه، وانكسار بين يديه، أن لا يجعلهم من أعدائه،

إذ هم يشاهدونهم ويشاهدون خذلان الله لهم، وإعراضه عنهم، ومقته لهم وما أعدَّ لهم من العذاب، وكل ذلك بمشيئته وإرادته، وتصرّفه في مملكته، فأولياؤه من خشية خذلانه خاضعون مشفقون على أشدِّ وجَلٍ، وأعظم مخافة وأتم إنكسار.

فإذا رأت الملائكة إبليس و ما جرى له، و هاروت و ماروت: وضعت رؤوسها بين يدي الرب خضوعًا لعظمته، واستكانة لعزته وخشية من إبعاده وطرده، وتذللًا لهيبته، وافتقارًا إلى عصمته ورحمته، وعلمت بذلك منَّته عليهم، وإحسانه اليهم، وتخصيصه لهم بفضله وكرامته [1].

❊❊❊

(١) مدارج السالكين (٧٠٥-٧٠٦)، دار طيبه / ت عبد العزيز الجليل.

المرقاة الثالثة والثلاثون

معرفة دركات الإعراض عن الحق

إن كل من أعرض عن شيء من الحق أو جحده، وقع في باطل مقابل لما أعرض عنه من الحق وجحده ولابدّ.

حتى في الأعمال، من رغب عن العمل لوجه الله وحده ابتلاه الله بالعمل لوجوه الخلق، فرغب عن العمل لمن ضره ونفعه وموته وحياته وسعادته بيده، فابتُلي بالعمل لمن لا يملك له شيئًا من ذلك.

وكذلك من رغب عن إنفاق ماله في طاعة الله ابتُلي بإنفاقه لغير الله وهو راغم، وكذلك من رغب عن التعب لله ابتُلي بالتعب في خدمة الخلق ولا بدّ، وكذلك من رغب عن الهدى بالوحي، ابتُلي بكناسة الآراء، وزبالة الأذهان، ووسخ الأفكار.

فليتأمل من يريد نُصح نفسه وسعادتها وفلاحها هذا الموضع في نفسه وفي غيره[1].

❊ ❊ ❊

(١) مدارج السالكين (٣١١)، طيبه / ت ع الجليل.



المرقاة الرابعة والثلاثون

رضا العبد بطاعته وعمله

رضا العبد بطاعته دليل على حُسن ظنِّه بنفسه، وجهله بحقوق العبوديَّة، وعدم عمله بما يستحقُّه الربُّ جَلَّجَلَالُهُ ويليق أن يعامل به.

وحاصل ذلك أنَّ جهله بنفسه وصفاتها وآفاتها وعيوب عمله، وجهله بربه وحقوقه وما ينبغي أن يعامل به، يتولَّد منهما رضاه بطاعته، وإحسان ظنه بها، ويتولَّد من ذلك من العُجب والكبر والآفات ما هو أكبر من الكبائر الظاهرة من الزنا، وشرب الخمر، والفرار من الزحف ونحوها، فالرضا بالطاعة من رعونات النفس وحماقتها.

وأرباب العزائم والبصائر أشد ما يكونون استغفارًا عقيب الطاعات لشهودهم تقصيرهم فيها، وترك القيام لله بها كما يليق بجلاله وكبريائه، وأنه لولا الأمر لما أقدم أحدهم على مثل هذه العبودية، ولا رضيها لسيده.

وقد أمر الله تعالى وفْده وحُجَّاج بيته بأن يستغفرُوه عقيب إفاضتِهم من عرفات وهو أجل المواقف وأفضلها فقال: ﴿فَإِذَآ أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَٰتٍ فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ عِندَ ٱلْمَشْعَرِ ٱلْحَرَامِ ۖ وَٱذْكُرُوهُ كَمَا هَدَىٰكُمْ وَإِن كُنتُم مِّن قَبْلِهِۦ لَمِنَ ٱلضَّآلِّينَ﴾ [البقرة:١٩٨]، ﴿ثُمَّ أَفِيضُواْ مِنْ حَيْثُ أَفَاضَ ٱلنَّاسُ وَٱسْتَغْفِرُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

[البقرة:١٩٩]، وقال تعالى: ﴿ وَٱلۡمُسۡتَغۡفِرِينَ بِٱلۡأَسۡحَارِ ﴾ [العمران:١٧].

قال الحسن: مدوا الصلاة إلى السحر ثم جلسوا يستغفرون الله عز وجل، وفي الصحيح: «**أنَّ النبيَّ ﷺ كان إذا سلَّم من الصَّلاة ا ستغفر ثلاثًا ثم قال: اللهم أنت السَّلام ومنك السَّلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام**» رواه مسلم، وأمره الله تعالى بالا ستغفار بعد أداء الر سالة والقيام بما عليه من اعبائها وقضاء فرض الحج واقتراب أجله، فقال في آخر سورة أنزلت عليه: ﴿ إِذَا جَآءَ نَصۡرُ ٱللَّهِ وَٱلۡفَتۡحُ ۝١ وَرَأَيۡتَ ٱلنَّاسَ يَدۡخُلُونَ فِي دِينِ ٱللَّهِ أَفۡوَاجٗا ۝٢ فَسَبِّحۡ بِحَمۡدِ رَبِّكَ وَٱسۡتَغۡفِرۡهُۚ إِنَّهُۥ كَانَ تَوَّابَۢا ۝٣ ﴾ [النصر:٣].

ومن ههنا فهم عُمر وابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أنَّ هذا أجلُ رسول الله عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أعلمه به، فأمره أن يستغفر عقيب أداء ما كان عليه، فكأنَّه إعلامٌ بأن أديت ما عليك، ولم يبق عليك شيء، فاجعل خاتمته الاستغفار، كما كان خاتمة الصلاة والحج وقيام الليل، وخاتمة الوضوء أيضًا أن يقول بعد فراغه:

«**سبحانك اللهم وبحمدك، أشهد أن لا إله إلا أنت، أستغفرُك وأتوبُ إليك، اللهمَّ اجعلني من التوَّابين واجعلْني من المتطهِّرين**»[1].

فهذا شأن من عرف ما ينبغي لله، ويليق بجلاله من حقوق العبودية

(١) أخرجه الترمذي (٥٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير (٦١٦٧).

وشرائطها لا جهل بعض أصحاب الدعاوى وشطحاتهم.

وقال بعضُ العارفين: متى رضِيت من نفسك وعملك لله، فاعلم أنه غير راض به، ومن عرف أن نفسه مأوى كل عيب وشر، وعمله عُرضة لكل آفة ونقص، كيف يرضى لله نفسه وعمله؟[1].

❊ ❊ ❊

(١) مدارج السالكين (٣٢٧-٣٢٩).

المرقاة الخامسة والثلاثون

الاجتناب عن تعيير الناس بذنوبهم

إن تعييرك لأخيك بذنبه أعظم إثمًا من ذنبه، وأشد من معصيته؛ لما من صولة الطاعة، وتزكية النفس وشكرها، والمناداة عليها بالبراءة من الذنب، وأن أخاك باء به، ولعل كسرته بذنبه، وما أحدث له من الذلة والخضوع، والإزراء على نفسه، والتخلص من مرض الدعوى والكبر والعجب، ووقوفه بين يدي الله ناكس الرأس، خاشع الطرف، منكسر القلب أنفع له، وخير من صولة طاعتك، وتكثرك بها والإعتداد بها، والمنة على الله وخلقه بها.

فما أقرب هذا العاصي من رحمة الله! وما أقرب هذا المدل من مقت الله، فذنب تذل به إليه أحب إليه من طاعة تُدل بها عليه، وإنك أن تبيت نائمًا وتصبح نادمًا، خيرًا من أن تبيت قائمًا وتصبح معجبًا؛ فإنَّ المعجب لا يصعد له عمل، وإنك أن تضحك وأنت معترف، خير من أن تبكي وأنت مُدل، وأنينُ المذنبين أحب إلى الله من زجل المسبِّحين المدلين، ولعل الله أسقاه بهذا الذنب دواءً استخرج به داءً قاتلًا هو فيك ولا تشعر.

فلله في أهل طاعته ومعصيته أسرار لا يعلمها إلا هو، ولا يطالعها إلا أهل البصائر، فيعرفون منها بقدر ما تناله معارف البشر، ووراء ذلك ما لا يطلع عليه الكرام الكاتبون، وقد قال النبي ﷺ: **«إذا زنت أمةُ أحدكم، فليقم عليها الحد ولا**

يثرب» رواه البخاري.

أي لا يعير، ومن قول يوسف عليه السلام لإخوته ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ﴾ [يوسف:٩٢]، فإنَّ الميزان بيد الله، والحكم لله، فالسوط الذي ضُرب به هذا العاصي بيد مقلِّب القلوب، والقصد إقامة الحدِّ لا التعيير والتثريب، ولا يأمن كرات القدر وسطوتَه إلا أهلُ الجهل بالله.

وقد قال الله تعالى لأعلم الخلق به، وأقربهم إليه وسيلة ﴿وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا﴾ [الإسراء:٧٤] وقال يوسف الصديق: ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ﴾ [يوسف:٣٣]، وكانت عامة يمين الرسول ﷺ: **«لا ومقلِّب القلوب»** رواه البخاري.

وقال: **«ما من قلب إلا وهو بين إصبعين من أصابع الرحمن عز وجل، إن شاء أن يُقيمه أقامه، إن شاء أن يُزيغه أزاغه»** رواه ابن ماجه[1].

❊ ❊ ❊

(١) مدارج السالكين (٣٣١-٣٣٢).

المرقاة السادسة والثلاثون

تجنُّب الإصرار على المعاصي

الإصرار على المعاصي معصية أخرى، والقعود عن تدارك الفارط من المعصية إصرار ورضا بها، وطمأنينة إليها وذلك علامة الهلاك، وأشدُّ من هذا كله: المجاهرة بالذنب، مع تيقن نظر الرب جل جلاله من فوق عرشه إليه، فإن آمن بنظره إليه وأقدم على المجاهرة فعظيم.

وإن لم يؤمن بنظره إليه واطِّلاعه عليه فكفر، وانسلاخ من الإسلام بالكلية، فهو دائر بين الأمرين:

بين قلة الحياء، ومجاهرة نظر الله إليه.

وبين الكفر والإنسِلاخ من الدين.

فلذلك يشترط في صحة التوبة تيقنه أنَّ الله كان ناظرًا -ولايزال- إليه مطلِّعًا عليه يراه جهرة عند مواقعة الذنب، لأن التوبة لا تصح إلا من مسلم، إلا أن يكون كافرًا بنظر الله إليه جاحدًا له، فتوبته دخوله في الإسلام وإقراره بصفات الرب جل جلاله [1].



(١) مدارج السالكين (ص: ٣٣٨).



المرقاة السابعة والثلاثون

علامات التوبة النصوح

التوبة الصحيحة توبة خاصة تحصل للقلب لا يشبهها شيء، ولا تكون لغير المذنب، لا تحصل بجوع ولا رياضة ولا حب مجرد، وإنما هي أمر وراء هذا كلِّه، تكسر القلب بين يدي الرب كسرة تامة، قد أحاطت به من جميع جهاته، وألقته بين يدي ربه طريحًا ذليلًا خاشعًا.

كحال عبد جانٍ أبَق من سيِّده، فأخذ فأحضر بين يديه، ولم يجد من ينجيه من سطوته، ولم يجد منه بدًّا ولا عنه غناء ولا منه مهربًا، وعلم أنَّ حياته وسعادته وفلاحه ونجاحه في رضاه عنه، وقد علم إحاطة سيده بتفاصيل جناياته، هذا مع حبه لسيِّده، وشدة حاجته إليه، وعلمه بضعفه وعجزه، وقوة سيدته وذلِّه، وعز سيدِّه، فلله ما أحلى قوله في هذه الحال:

«أسألك بعزِّك وذلِّي إلا رحمتني، أسألك بقوتك وضعفي، وبغناك وفقري إليك، هذه ناصيتي الكاذبة الخاطئة بين يديك، عبيدك سواي كثير، وليس لي سيِّدٌ سواك لا ملجأ ولا منجَى منك إلا إليك، أسألك مسألة المسكين، وأبتهل إليك ابتهال الخاضع الذليل، وأدعوك دعاء الخائف الضرير، سؤال من خضعت لك رقبته، ورغم لك أنفه، وفاضت لك عيناه، وذل لك قلبه».

يامن ألوذُ به فيما أؤمله ... ومن أعوذ به مما أحاذرُه
لا يجبر النَّاس عظمًا أنت كاسره ... ولا يهيضون عظمًا أنت جابرُه



فهذا وأمثاله من آثار التوبة المقبولة، فمن لم يجد ذلك في قلبه فليتَّهم توبته وليرجع إلى تصحيحها، فما أصعب التوبة الصحيحة بالحقيقة، وما أسهلها باللِّسان والدعوى، وما عالج الصادق بشيء أشقّ عليه من التوبة الخالصة الصادقة، ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وأكثر الناس من المتنزهين عن الكبائر الحسيَّة والقاذورات في كبائر مثلها أو أعظم منها أو دونها، ولا يخطر بقلوبهم أنَّها ذنوب ليتوبوا منها.

فعندهم -من الإزراء على أهل الكبائر واحتقارهم وصولة طاعاتهم، ومنَّتهم على الخلق بلسان الحال، واقتضاء بواطنهم لتعظيم الخلق لهم على طاعاتهم، إقتضاء لا يخفى على أحد غيرهم وتوابع ذلك- ماهو أبغض إلى الله، وأبعد لهم عن بابه من كبائر أولئك.

فإن تدارك الله أحدهم بقاذورة أو كبيرة يوقعه فيها، ليكسر بها نفسه ويُعرفه قدره ويُذله بها، ويخرج بها صولة الطاعة من قلبه، في رحمة في حقه.

كما أن تدارك أصحاب الكبائر بتوبة نصُوح، وإقبال قلوبهم إليه، فهو رحمة في حقهم، وإلا فكلهما على خطر(١).

❊❊❊

(١) مدارج السالكين (٣٤٧- ٣٤٩).



المرقاة الثامنة والثلاثون

خوف العبد على عمله من أن يصير سرابا

قال الله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـٔٗا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ٣٩ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ ﴾ [النور:(٣٩-٤٠)].

في الآية المذكورة ذكر سبحانه للكافرين مثلين:

مثلا بالسَّراب.

ومثلا بالظلمات المتراكمة.

وذلك لأنَّ المعرِضين عن الهدى والحق نوعان:

أحدهما: من يظنُّ أنه على شيء فيتبين له عند انكشاف الحقائق خلاف ما كان يظنُّه. وهذه حال أهل الجهل، وأهل البدع، والأهواء، الذين يظنون أنهم على هدى وعلم، فإذا انكشفت الحقائق تبين لهم أنهم لم يكونوا على شيء، وأن عقائدهم وأعمالهم التي ترتبت عليها كانت كسراب، يرى في أعين الناظرين ماء ولا حقيقة له.



وهكذا الأعمال التي لغير الله عز وجل، وعلى غير أمره يحسبها العامل نافعة له وليســت كذلك، وهذه هي الأعمال التي قال الله عز وجل فيها: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا ﴾[الفرقان: ٢٣].

وتأمل جعل الله ســبحانه السرــاب بالقيعة، وهي الأرض الخالية القفر من البناء والشجر والنبات والعالم، فمحل السراب أرض قفر لا شئ بها، والسراب لا حقيقة له، وذلك مطابق لأعمالهم وقلوبهم التي أقفرت من الإيمان والهدى، وتأمل ما تحت قوله: ﴿ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً ﴾ [النور: ٣٩].

والظمآن: الذي أ شتد عطشه فرأى السراب فظنه ماء فتبعه فلم يجده شيئا، بل خانه أحوج ما كان إليه، فكذلك هؤلاء لما كانت أعمالهم على غير طاعة الرسل عليهم الصــلاة والســلام، ولغير الله جعلت كالسرــاب فرفعت لهم أظمأ ما كانوا إليها فلم يجدوا شــيئا، وو جدوا الله ســبحا نه، ثم فجازاهم بأعمالهم وو فاهم حسابهم.

وفي الصــحيح من حديث أبي ســعيد الخدري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ عن النبي ﷺ في حديث التجلي يوم القيامة: «ثم يؤتى بجهنم تعرض كأنها السرــاب فيقال لليهود وما كنتم تعبدون؟ فيقولون كنا نعبد عُزيرا ابن الله فيقال: «كذبتم لم يكن لله صاحبة ولا ولد فما تريدون؟» قالوا: نريد أن تسقينا فيقال: «اشربوا فيتساقطون في جهنم» ثم يقال للنصــارى: «ما كنتم تعبدون؟» فيقولون: كنا نعبد المســيح ابن الله، فيقال:

«كذبتم ما كان لله صاحبة ولا ولد، فما تريدون؟» فيقولون: أن تسقينا فيقال لهم: اشربوا فيتساقطون»، وذكر الحديث[1].

وهذه حال كل صاحب باطل، فإنَّه يخونه باطلُه أحوج ما كان إليه؛ فإن الباطل لا حقيقة له، وهو كاسْمِه باطل، فإذا كان الاعتقاد غير مطابق ولا حق؛ كان متعلَّقه باطلا، وكذلك إذا كانت غاية العمل باطلة كالعمل لغير الله عز وجل، أو على غير أمره بطل العمل ببُطلان غايته وتضرُّر عامله ببطلانه وبحصول ضدِّ ما كان يؤمله، فلم يذهب عليه عمله واعتقاده لا له ولا عليه، بل صار معذَّبا بفوات نفعِه وبحصول ضد النفع.

فلهذا قال تعالى: ﴿وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ [النور: ٣٩] فهذا مثل الضال الذي يحسب أنه على هدى.

النوع الثاني: أصحاب الظُّلمات المتراكمة، وهم الذين عرفوا الحق والهدى وآثروا عليه ظلمات الباطل والضلال، فتراكمت عليه ظلمة الطبع وظلمة النفوس وظلمة الجهل، حيث لم يعلموا بعلمهم، فصاروا جاهلين، وظلمة أتباع الغيِّ والهوى.

فحالهم كحال من كان في بحر لُجِّيٍّ لا ساحل له، وقد غشيه موج ومن فوق

---

(١) صحيح البخاري (٤٥٨١).

ذلك الموج موجٌ، ومن فوقه سـحاب مظلمٌ فهو في ظلمة البحر، وظلمة الموج، وظلمة السَّحاب، وهذا نظير ما هو فيه من الظُّلمات التي لم يخرجه الله منها إلى نور الإيمان.

وهذان المثلان بالسراب الذي ظنَّه مادة الحياة وهو الماء، والظلمات المضادة للنور، نظيرُ المثَلين اللذين ضربهما للمنافقين والمؤمنين، وهما المثل المائي، والمثل الناري، وجعل حظَّ المؤمنين منهما الحياة والإشراق، وحظَّ المنافقين منهما الظلمة المضادة للنور والموت، المضاد للحياة، فكذلك الكفار في هذين المثلين، حظُّهم من الماء السرابُ الذي يغرّر الناظر فيه، ولا حقيقة له وحظُّهم الظلمات المتراكمة، وهذا يجوز أن يكون المراد به حال كل طائفة من طوائف الكفار، وأنهم عدموا مادة الحياة والإضاءة بإعراضهم عن الوحي فيكون المثلان صفتين لموصوف واحد.

ويجوز أن يكون المراد به تنويع أحوال الكفار، وأن **أصحاب المثل الأول**: هم الذين عملوا على غير علم، ولا بصيرة، بل على جهل وحسن ظن بالأسلاف، فكانوا يحسبون أنهم يحسنون صنعا.

وأصحاب المثل الثاني: هم الذين استحبُّوا الضلالة على الهدى، وآثروا الباطل على الحق، وعموا عنه بعد إذ أبصروه وجحدوه بعد أن عرفوه فهذا حال المغضوب عليهم، والأول حال الضَّالين، وحال الطائفتين مخالف لحال المنعم

عليهم المذكورين في قوله تعالى: ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ﴾

إلى قوله: ﴿ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور:٣٨] فتضمنت الآيات أوصاف الفرق الثلاثة:

المنعم عليهم: وهم أهل النور.

والضالون: وهم أصحاب السراب.

والمغضوب عليهم: وهم أهل الظلمات المتراكمة والله أعلم [١].

* * *

(١) الأمثال في القرآن (ص: ١٥)، دار الصحابة.

المرقاة التاسعة والثلاثون

حذر العبد من الانسلاخ من آيات الله وحكمته

ذكر الله تعالى مثلا لمن آتاه الله الآيات والحكمة ثُم تركها من أجل الدنيا، فقال تعالى: ﴿ وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ﴿١٧٥﴾ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ ذَّٰلِكَ مَثَلُ ٱلۡقَوۡمِ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَاۚ فَٱقۡصُصِ ٱلۡقَصَصَ لَعَلَّهُمۡ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٥-١٧٦].

شبه سُبۡحَانَهُۥ وَتَعَالَىٰ من آتاه كتابه وعلمه العلم الذي منعه غيره، فترك العمل به واتَّبع هواه وآثر سُخط الله على رضاه ودنياه على آخرته، والمخلوق على الخالق، بالكلب الذي هو من أخبث الحيوانات، وأو ضعِها قدرا، وأخبثها نفسًا، وهمته لا تتعدى بطنه، وأشدها شرُّها وحرصًا.

ومن حرصه أنَّه لا يمشي- إلا وخطمُه في الأرض يتشمَّم ويتروَّح حرصًا وشرهًا ولا يزال يشم دبره دون سائر أجزائه، وإذا رميت له بحجر رجع إليه ليعضَّه من فرط نهمتِه، وهو من أمهن الحيوانات وأحملها للهَوان، وأرضاها بالدَّنايا والجيف المروحة أحب إليه من اللحم الطريِّ، والقذرة أحبُّ إليه من الحلوى، وإذا ظفر بميتة تكفِي مائة كلبٍ لم يدع كلبا يتناولُ معه منه شيئًا، إلا هرَّ عليه وقهره لحرصه وبخله وشره.

ومن عجيب أمره وحرصــه أنه إذا رأى ذا هيئة رثَّة وثياب دنيَّة وحال زرية نبحه وحمل عليه كأنَّه يتصور مشاركته له، ومنازعته في قُوْته.

وإذا رأى ذا هيئة حســنة وثياب جميلة ورئاســة وضــع له خطمهُ بالأرض وخضع له ولم يرفع إليه رأسَه.

وفي تشــبيه من آثر الدنيا وعاجلها على الله والدار الآخرة مع وُفور علمه بالكلب في لهثه سرٌّ بديعٌ، وهو أنَّ الذي حاله ما ذكره الله من انســلاخِه من آياته واتِّباعه هواه إنَّما كان لشِــدَّة لهفه على الدُّنيا لانقطاع قلبه عن الله والدار الآخرة، فهو شــديد اللَّهف عليها، ولهفُه نظير لهفِ الكلب الدَّائم في حال إزعاجِه وتركه، واللَّهف واللَّهث شقيقان وأخوان في اللفظ والمعنى.

قال ابن جريج: «الكلب منقطع الفؤاد لا فؤاد له، إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، فهو مثل الذي يترُك الهدى، لا فُؤاد له إنَّما فؤادُه ينقطع».

قلت: مراده بانقطاع فؤاده أنه ليس له فؤاد يحمله على الصبر وترك اللهث، وهكذا الذي انســلخ من آيات الله لم يبق معه فؤاد يحمله على الصــبر عن الدنيا، وترك اللهف عليها، فهذا يلهف على الدنيا من قلة صــبره عليها، وهذا يلهث من قلة صــبره على الماء، فالكلب من أقل الحيوانات صــبرا عن الماء، وإذا عطش أكل الثرى من العطش، وإن كان صــبر عن الجوع، وعلى كل حال، فهو من أشــد الحيوانات لهثا يلهث قائما، وقاعدا، وما شيا، وواقفا؛ ذلك لشدة حر صه، فحرارة الحرص في كبده توجب له دوام اللهث.

فهكذا مشبَّهه شدة حرارة الشهوة في قلبه توجب له دوام اللهث، فإن حملت عليه بالموعظة والنصيحة فهو يلهث، وإن تركته ولم تعظه فهو يلهف.

قال مجاهد: «وذلك مثال الذي أوتى الكتاب ولم يعمل به».

وقال ابن عباس: «إن تحمل عليه الكلمة لم يحملها وإن تركته لم يهتد إلى الخير كالكلب إن كان رابضا لهث وإن طرد لهث».

وقال الحسن: «وهو المنافق لا يثبت على الحق دعي أو لم يدع وعظ أم لم يوعظ كالكلب يلهث طرد أو ترك».

وقال عطاء: «ينبح إن حملت عليه أو لم تحمل عليه».

وقال محمد بن قتيبة: «كل شيء يلهث، إنما يلهث من إعياء أو عطش إلا الكلب، فإنه يلهث في حال الكلال أو حال الراحة وحال الصحة وحال المرض والعطش، فضربه الله مثلا لمن كذب بآياته».

وقال ابن عطية: «إن وعظته فهو ضال، وإن تركته فهو ضال كالكلب، إن طردته لهث، وإن تركته على حاله لهث، ونظيره قوله تعالى: ﴿وَإِن تَدۡعُوهُمۡ إِلَى ٱلۡهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمۡۚ سَوَآءٌ عَلَيۡكُمۡ أَدَعَوۡتُمُوهُمۡ أَمۡ أَنتُمۡ صَٰمِتُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٣].

***



المرقاة الأربعون

الصلاح يوجب الثبات

تثبيت الله لعباده الصالحين:

تحت قوله: ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْأَخِرَةِ ﴾ [إبراهيم: ٢٧]، كنز عظيم، من وقف عليه لظنته، وأحسن استخراجه واقتناءه، وأنفق منه فقد غنم، ومن حرمه فقد حرم.

وذلك أن العبد لا يستغني عن تثبيت الله طرفة عين فإن لم يثبته وإلا زالت سماء إيمانه وأرضه عن مكانهما وقد قال تعالى لأكرم خلقه عليه، عبده ورسوله ﷺ:

﴿ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَـٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴾[الإسراء: ٧٤].

وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُواْ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ﴾[الأنفال: ١٢].

وفي الصحيحين من حديث البجلي قال: **«وهو يسألهم ويثبتهم»**.

وقال تعالى لرسوله ﷺ: ﴿ وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ﴾ [هود: ١٢٠].

فالخلق كلهم قسمان:

موفق بالتثبيت، ومخذول بترك التثبيت، ومادة التثبيت وأصله ومنشأه من



القول الثابت، وفعل ما أمر به العبد فيهما يثبت الله عبده، فكل ما كان أثبت قولا وأحسن فعلا كان أعظم تثبتا، قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا۟ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا ﴾ [النساء: ٦٦].

فأثبت الناس قلبا أثبتهم قولا، والقول الثابت هو القول الحق والصدق، وهو ضد القول الباطل الكذب.

فالقول نوعان: ثابت له حقيقة، وباطل لا حقيقة له.

وأثبت القول كلمة التوحيد ولوازمها فهي أعظم ما يثبت الله بها عباده في الدنيا والآخرة، ولهذا ترى الصادق من أثبت الناس وأشجعهم قلبا والكاذب من أمهن الناس، وأخبثهم وأكثرهم تلويا وأقلهم ثباتا، وأهل الفراسة يعرفون صدق الصادق من ثبات قلبه وقت الاختبار وشجاعته ومهابته، ويعرفون كذب الكاذب بضد ذلك، ولا يخفى ذلك إلا على ضعيف البصيرة.

وسئل بعضهم عن كلام سمعه من متكلِّم به فقال: والله ما فهمت منه شيئا إلا أني سمعت لكلامه صولة ليست بصولة مبطل، فما منح العبد منحة أفضل من منحة القول الثابت.

ويجد أهل القول الثابت ثمرته أحوج ما يكونون إليه في قبورهم ويوم معادهم كما في صحيح مسلم من حديث البراء بن عازب عن النبي ﷺ: أن هذه الآية نزلت في عذاب القبر، وقد جاء هذا مبينا في أحاديث صحاح فمنها ما في

المسند من حديث داود بن أبي هند عن أبي نضرة عن أبي سعيد قال: كنا مع النبي ﷺ في جنازة فقال: **«يا أيها الناس إن هذه الأمة تبتلى في قبورها، فإذا الإنسان دفن وتفرق عنه أصحابه جاءه ملك بيده مطراق فأقعده فقال: ما تقول في هذا الرجل؟ فإن كان مؤمنا قال: أشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله، فيقول له صدقت، فيفتح له باب إلى النار فيقال له: هذا منزلك لو كفرت بربك، فأما إذ آمنت؛ فإن الله أبدلك به هذا ثم يفتح له باب إلى الجنة، فيريد أن ينهض، فيقول له: أسكن ثم يفسح له في قبره، وأما الكافر والمنافق فيقال له: ما تقول في هذا الرجل فيقول: لا أدري، فيقال: لا دريت ولا اهتديت، ثم يفتح له باب إلى الجنة فيقال له: هذا منزلك لو آمنت بربك، فأما إذ كفرت فإن الله أبدلك به هذا، ثم يفتح له باب إلى النار، ثم يقمعه الملك بالمطراق قمعة يسمعه خلق الله كلهم إلا الثَّقلين»** قال بعض أصحابه: يا رسول الله: ما منا من أحد يقوم على رأسه ملك بيده مطراق إلا هيل عند ذلك؟ فقال رسول الله ﷺ ﴿ يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِي ٱلْأٓخِرَةِۖ وَيُضِلُّ ٱللَّهُ ٱلظَّٰلِمِينَۚ وَيَفْعَلُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وفي المسند من حديث البراء بن عازب، وروى المنهال عن عمرو، وعن زاذان عن البراء قال: قال رسول الله ﷺ: وذكر قبض روح المؤمن فقال: **«يأتيه آت -يعني في قبره- فيقول: من ربك وما دينك ومن نبيك؟ فيقول ربي الله وديني الإسلام ونبي محمد ﷺ قال: فيقول له: ما ربك وما دينك؟ وهي آخر فتنة تعرض**

على المؤمن فذلك حين يقول الله: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد ﷺ، فيقال له: صدقت» وهذا حديث صحيح.

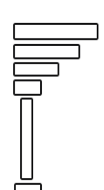
وقال حماد بن سلمة عن محمد بن عمر وعن أبي سلمة عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ [إبراهيم:٢٧]، قال: «إذا قيل له في القبر: من ربك وما دينك؟ فيقول: ربي الله وديني الإسلام ونبيي محمد، جاء بالبينات من عند الله فآمنت وصدقت، فيقال له: صدقت، على هذا عشتَ وعليه متَّ وعليه تُبعث».

وقال الأعمش، عن المنهال بن عمرو، عن زاذان عن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ ... وذكر قبض روح المؤمن قال: «فترجع روحُه في جسده، ويبعثُ إليه ملكان شديدان فيُجلسانه ويَنهرانه ويقولان من ربك؟ فيقول: الله وما دينك؟ فيقول: الإسلام، فيقولان: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: محمد رسول الله»[1].

***

(١) الأمثال في القرآن لابن القيم (ص: ٤٤).





فهرس الموضوعات

